

اصل النبط في البتراء

بين البحر الميت (بحيرة لوط) وخليج ايلة (العقبة) منخفض من الارض يبالغ طولهُ نحواً من مئة ميل : وهذا المنخفض يعرف بالعمور وقد يطلق عليه وادي العربية بال او بدونها. وعرض هذا الوادي بين اربعة اميال واربعة عشر ميلاً : وهو قفر بلقع قليل النبات شديد الحر . والى شرقيه سلسلة جبال ادوم المعروفة قديماً بجبل سدير وتعرف اليوم بجبال الشراة وجبال الشوبك

في هذه الجبال في منتصف المسافة تقريباً بين البحر الميت وبين خليج العقبة موقع مدينة بترا (البترا) وهي مدينة سالع القديمة عاصمة الادوميين قبل ايام نبوخذ نصر وتعرف خرائطها اليوم باسم وادي موسى

ان المسافر من الشام الى العربية جنوباً يصل الى هذه المدينة ولا يراها بل لا يرى الا الجبال المحيطة بها . وفيما هو لا يرى الا تلالاً تحييه وتلالاً تنهب يقع بينها - وكانت بفتة على مطمئن من الارض اذا بلغ منتهاهُ غرباً وقع على رملع او شق او شج بين هذه الجبال وهذا السلم تعلوه الصخور عن جانبيه كالجدار الى ما يبلغ نحواً من ثلاثمئة قدم او يزيد احياناً . وعرضه لا يتجاوز في كثير منه بضمة امتار وطوله نحو من اثنى متر الى الفين وخمسمئة فاذا انتهى المسافر الى آخر هذا السالع انكشف امامه مطمئن او قاع من الارض تعلوه الجبال من جميع جهاته . واتساع هذا القاع شرقاً يغرب ينحرف الى الشمال نحو من ثلثي ميل وشمالاً يجنوب ينحرف الى الغرب نحو من ميل ونصف الميل . في هذا القاع كانت سالع الادومية او بتراء النبطية مدينة الغنى والتجارة مئات من السنين

لمن كانت هذه المدينة اولا

فلنا ان موقع المدينة في منبسط من جبال الشراة وهي الجبال المعروفة في التوراة بجبل سدير . وكان يسكنها قديماً قوم يعرفون بالخوريين والظاهر ان سدير كان اميراً على اوائك الاقوام وبه سمي الجبل سدير . اما من كان هؤلاء الخوريين ومن ابن جاؤوا فارى أنهم من القبائل العربية الجنوبية اهل اليمن وحضرموت وقد جاؤوا البلاد غازين مع من جاء من القبائل العديدة التي غلبت على سوريا ومصر وكان منها الدولة المعروفة بدولة ارجاء او دولة الهكسوس في بلاد مصر . فان هذه القبائل تغلبت كما ارى على معظم سوريا لذلك الحين كما تغلبت على مصر واقسمت البلاد فنزلت كل قبيلة منها في ناحية كان لها السيادة

عليها على شاكلة ما كان في ايام الفتوحات العربية الاسلامية وارى ايضاً ان اصل الحوريين من اليمن او من حضرموت من قرية او مدينة من مدن تلك البلاد فنسبوا اليها تمييزاً لهم عن غيرهم من بقية قبائل اليمن وحضرموت

وبعد ان استوطن الحوريون البلاد والامارة فيهم لا لسعير ولبثوا فيها حتى سميت الجبال باسمهم وعرفت البلاد انها بلادهم جاءت القبيلة العبرانية الشهيرة اعني قبيلة ابراهيم الخليل ونزلت البلاد غربي الاردن وكانت تتردد فيها من شكيم في الشمال الى يرسبع في الجنوب ولما كانت هذه القبيلة العبرانية دخيلة على من سبقها الى البلاد من القبائل العربية الجنوبية كان لا بد لها بحكم الضرورة والعادة من ان تحالف من كانت تنزل في جوارها من الامراء والرؤساء وهكذا جاء النص صريحاً في سفر التكوين ان ابراهيم الخليل حالف عازر واشكول ومرا في حبرون وابي مامك ملك الفاسطيين في جبرار على مقربة من يرسبع. وجاء ايضاً في السفر نفسه انه اي ابراهيم اعطى عشراً من كل شيء لملك صادق ملك شاليم بعد ان رجع من محاربة كدرامومر ملك عيلام. وبالاجمال كانت القبيلة في اول امرها كما يقول الكتاب غرباء ونزلاء لا يملكون في البلاد شبراً من الارض ولعل حقل المكفيلة في حبرون كان اول قطعة من الارض تملكوها بجوار المدن او القرى الكبيرة اشتراها ابراهيم من عفرون بن صوحر الحثي باربعمئة شاقل من الفضة مدفناً فيه سارة زوجته

الا ان القبيلة لم تلبث كثيراً في البلاد حتى اتقسمت الى قسمين انحاز احدهما الى لوط (ابن اخي ابراهيم) وبني الآخر وهو اكبر القسمين في الراجح مع ابراهيم وتحت رثامته فهد ذلك من ابراهيم وقت في ساعده حتى هم ان يعود الى مصر مخافة ان تتخطفه امراء البلاد الكثيرون ولم تطمئن نفسه الا بعد ان ظهر له الله وطيب خاطره بان وعده ان يعطيه البلاد له ولنسله من بعده. ومع ذلك ترك البلاد في جهات نابلس حيث كان وارتحل الى الجنوب واقام عند بلوطات ممرا وربما كان ذلك بعد ان استوثق من عازر واخويه اشكول ومرا وهم امراء الديرية في حبرون وجوارها بحلف عقده معهم. وارجح ان ابراهيم فضل الإقامة بين حبرون ويير سبع بعد انفصال ابن اخيه عنه لما آانس في نفسه من الضعف بعد ذلك الانقسام ولان البلاد في جهات نابلس كانت اكثر ساكناً وامراء نخاف من ثم كثرة التناضي على المرعى والجوار بكثرة الامراء بخلاف البلاد بين حبرون ويير سبع فانها كانت اقل ساكناً وامراء فضلاً عن انها اقرب الى البرية حصن اهل الخيام الذي يدفع عنهم تمدتي اهل المدن واطاعهم

والظاهر من سفر التكوين (وهو في رأي تاريخ لامراء هذه القبيلة ابراهيم واسحق

ويعقوب قصداً أو من كان له علاقة بهم كلوط وعيسو عراً كتب يوسف بعدان صار وزيراً لفرعون ومسلطاً على ارض مصر) ان لوطاً لما لم يبق له مطمع بالاستقلال مع الكنعانيين ورأى نفسه مكشوراً منهم مغلوباً لعصبيتهم سواء سكن المدن او الخيام اخذ الى الحضارة ووطن نفسه على مخالطة القوم والسكنى بينهم مقهوراً فسكن من ثم في سدوم مستضعفاً لا يقوى على حماية ضيفه من تعدي السفهاء ولا ان يدفع عنهم سفالة الغوغاء

واما ابراهيم فكان اشد شكيمه من ابن أخيه واكثر مالا وتابعا منه فلم ير مارآه ولا انكسر انكساره ففضل من ثم سكنى الخيام على سكنى المدينة وبقي يتنقل في البلاد تارة ينزل في جهات حبرون واخرى في جهات بير سبع

وطالت غربته في كنعان وامتدت به الايام ولم يتغير عن عزمه الاول في ارادة الاستقلال عن اهل البلاد وترك مخالطتهم ولعل السبب في ذلك انه كان اعرق في البداوة من اولئك الكنعانيين فكان من ثم لا تعجبه اطوارهم ويأنف من كثير من آدابهم وعوائدهم وفقاً لما نراه حتى الساعة من مجافي امراء البادية عن المدن وانفهم من كثير مما فيها وفي اهلها. ولعله فضلاً عن منصبه الديني كان يرى بيته وان كان نزيباً على الكنعانيين اكرم محتداً واعلى شرفاً من بيوتاتهم . وما زال هذا الفكر شديداً في نفسه الى ان ماتت سارة اميرة قومها وسيدة عشيلات القبيلة عن آخرهن

فبعد موتها اغضى شيئاً عن انفته السابقة وانكسرت حدة ما كان يراه من التفاوت بينه وبين الكنعانيين بدليل انه مال الى مصاهرتهم واخذ قطورا احدى بناتهم زوجة له . على انه وان يكن قد رضي ان يأخذ لنفسه زوجة من بنات كنعان لم يرض ان يأخذ منهم لابنه اسحق لانه كان يراه الوارث الشرعي لامارة القبيلة وفيه عزها وبقاء ميزها لان سيادتها كانت تحيط به من جانبه دون بقية اخوته ولذلك ارسل الى عشيرته والى بيت ايده فخطب له من هناك اميرة من بنات عمه رفقة ابنة بتوئيل بن ناحور اخي ابراهيم

وكبر بيت ابراهيم وكان له غير اسمعيل واسحق اولاد كثيرون من قطورا ومن حجيين او رعوة على قول بعض المؤرخين (انظر ابن خلدون جزء ٣ وجه ٣٨ و٣٩) . وحدث فيه من الفرقة ما يحدث عادة في امثاله من بيوت رؤساء القبائل الشرقية فذهب اسمعيل في جهة ومعه قسم من القبيلة في الراجح وابناء قطورا في جهة اخرى ومهمم قسم آخر وكذلك ابناء رعوة او حجيين . الا ان معظم القبيلة بقي مع اسحق في جهات بير سبع فانه كان يفضل الاقامة هناك في جوار الفلسطينيين كما كان ابوه يفضل حبرون وجوار بني حث . وعقد

اسحق حلفاً مع ابيالك ملك جرار وكان ابراهيم ابوه من قبل قد عقد حلفاً مع ابي ابيالك هذا على الارحج

قلنا ان ابراهيم كان يرى في اسحق الوارث الشرعي لرئاسة قبيلته وانه كان يربأ بنفسه عن مخالطة الكنعانيين ومصاهراتهم فارسل من ثم عبده الى بيت ابيه في ارام النهرين وخطب له ابنة عمه رفقة فولد له منها ولدان توأمان هما عيسو ويعقوب ولما كبر الولدان وقمت المغامرة والمنافسة بينهما على رئاسة القبيلة . وكانت الرئاسة لعيسو لانه البكر وكان اسحق ابوه يحبه ايضاً ويفضله على اخيه الا ان رفقة كان هواها مع يعقوب فعملت معه على كيد عيسو وبخيلتها صرفت عنه بركة ابيه فحز ذلك في نفسه واشتد الخلاف بينه وبين اخيه . وكان عيسو على ما ارى محبباً الى القبيلة وهواها معه فلما عظم الخلاف بينه وبين اخيه كما اشرفنا اليه وبلغ الامر غايته تخوف يعقوب على نفسه وعلم ان لا بقاء له مع اخيه ورأت رفقة امه ايضاً حرج حالته فارسلته الى فدان ارام الى بيت خاله لابان

وبعد ان هرب يعقوب الى فدان ارام انفرد عيسو برئاسة القبيلة وكانت بير سبع حيث يقيم هو وقبيلته قرية من جبال سمير (جبال الشراة) فتعرف عيسو بامرائها من آل سمير وخطب منهم احدي بناتهم واسمها هوليامة فزوجوه وحالفوه فترك بير سبع ونزل عليهم في ديارهم فاشتملوا عليه واختلطت القبيلتان ومع الايام كثر آل عيسو آل سمير وغلبوا عليهم حتى تنوسي امر الحوريين واصبحت البلاد خالصة للادوميين وتسمت باسمهم ايضاً ولم يبق من اثر لامراء آل سمير الحوري الا الحيل ما زال يعرف باسم امرائه الاولين مئات من السنين بعد انقراضهم ولا يزال علماء الكتاب والتاريخ يعرفونه بهذا الاسم وهو اشهر عندهم من الشراة لحد هذه الساعة

ظهر لنا مما مر ان البلاد كانت اولاً للعرب الجنوبيين المعروفين باسم الحوريين وانهم كانوا من جملة القبائل التي غزت سوريا ومصر في ايام دولة الرعاة المشهورة في مصر ثم غلبهم عليها الادوميون نحو ١٥٠٠ قبل المسيح . والادوميون هم ابناء عم اليهود كالعرب الاسماعيليين الا انهم اقرب اليهم من هؤلاء فانهم اخوتهم من اسحق ابن ابراهيم وسارة والاسماعيليون ابناء عمهم اسمعيل ابن ابراهيم من هاجر جارية سارة كما هو المتعارف والمشهور

كم من الزمان بقيت جبال سمير ومدينتها الحصينة صالح (البترا) في يد الادوميين

بعد ان خرج الاسرائيليون من مصر وبقوا المدة المشهورة في التيه جاؤا اخيراً الى قادش فارسل موسى من هناك رسلاً الى ملك ادوم يقول فيها

« هكذا يقول اخوك اسرائيل قد عرفت كل المشقة التي اصابتنا . ان آباءنا انحدروا الى مصر واقامنا في مصر اياماً كثيرة واساء المصريون الينا والى آباتنا فصرخنا الى الرب فسمع صوتنا وارسل ملاكاً واخرجنا من مصر وها نحن في قادش مدينة في طرف تخومك دعنا نمر في ارضك » الخ

وظاهر جلياً من هذه الرسالة ان الادوميين كانوا لذلك الحين قد استولوا على البلاد ولم يبق معهم اسم للبحوريين ولا ذكر لامرائهم من آل سمير واصبحت البتراء (سالم) قرية من قرانم او مدينة من مدنهم لكن لم يتم هذا الاستيلاء للادوميين الا بعد ان جرت بينهم وبين اخواتهم حروب شديدة كانت الدائرة فيها اخيراً على آل سمير فانجولوا عن البلاد وغادروها ملكاً لآل عيسو يتولاهاملك منهم يرجع اليه امر بقية الامراء والرؤساء ويدينون له بالطاعة . كل ذلك تم وابناء عمهم آل يعقوب كانوا لا يزالون في مصر (انظر سفر التثنية ص ٢ : ٢١ و ٢٢)

وخرج الاسرائيليون من مصر وجاءوا بلاد كنعان فحاربوا الاموريين وغيرهم من القبائل الكنعانية شرقي الاردن وغربيه ولم يتعرضوا اولاً لانسباهم من القبائل العبرانية اعني الادوميين والموايين والعمونيين وكانوا لذلك الحين قد رسخت قدمهم في البلاد واقتطعوا لهم نصيباً معيناً فيها

والذي اراه ان هذه القبائل التي ذكرناها كان ضامها مع الاسرائيليين لما يعرفونه لهم من القرابة في النسب ولما كان بينهم وبين جيرانهم القبائل الكنعانية من الحروب والعداوات (راجع تثنية ص ٢) . واستمر الادوميون في بلادهم لا ينازعهم منازع في ارضهم ولا يطمع في اخضاعهم احد من جيرانهم الموايين والاسرائيليين الى ايام شاول اول من ملك على بني اسرائيل . فلما ملك وانضوى اليه الاسباط الاثنا عشر — وكانوا من قبل قد تفرقت كلمتهم وانخضدت شوكتهم — أدى ذلك الى التحكك بالقبائل المجاورة ومن جملتهم الادوميون (انظر صموئيل الاول ص ١٤ : ٤٧) فجرت مناوشات بينه وبينهم ولا يبعد ان يكون سبب ذلك ان الادوميون اتصروا للعاقبة على شاول او انهم تعدوا على حدود الاسرائيليين الجنوبية حيث تماس تخوم سبطي يهوذا وشمعون بتخوم الادوميين ومهما يكن من سبب تلك المناوشات التي اجراها شاول فلرجع انها كانت من قبيل الدفاع عن التخوم دفعاً لعادية الادوميين لا من قبيل الطمع في اخضاعهم فانهضى من ثم ملك شاول ولم يكن كبير امر بين اسرائيل وادوم

فلما ملك داود واجتمعت اليه كلمة الاسباط الاثني عشر واخذ اورشليم عنوة من

اليوسيين وجعلها داراً للسكران ذلك الامم المجاورة ولا سيما الفلسطينيين وتخوفوا عاقبته عليهم فناصروه العداوة وفتحوا عليه ابواب حرب شديدة الا انها لم تغلق الا بعد ان ذلوا وتركوا له ما كانوا استولوا عليه من بلاد اسرائيل في ايام شاول وما قبله ايضاً

وكان الادوميون من جملة الامم الذين حاربوا داود ولا نعلم ماذا كان سبب تلك الحرب الا ان يكون المزارحات التجارية والظاهر ان الادوميين ضايقوا داود اولاً بدليل ما ورد من الاشارات في منظوماته ومن تلك الاشارات ما جاء في الزمور ١٠٨ فانه يقول فيه من يقودني الى المدينة المحصنة من يهدينني الى ادوم اليس انت يا الله الذي رفضتنا ولا تخرج يا الله مع جيوشنا اعطنا عوناً في الضيق فباطل هو خلاص الانسان . بالله نصنع ياس وهو يدوم اعداءنا هـ

ولاشك انه يشير بالمدينة المحصنة الى صالح (البتره) وهي من احصن مدن البلاد وقل ان تكون مدينة احصن منها -- كما يتبين من اللوحة التي وصفنا بها موقعها في اول مقالتنا هذه -- الا ان الغلبة كانت اخيراً لداود فانه التقى بالادوميين في وادي الملح الى جنوبي بحيرة لوط وقد جمعوا له قواتهم عن آخرها فسير اليهم ابشاي بن صروية اخته وكان من نجبة قواده ونشبت بينه وبينهم معركة من اعظم المعارك واشدها هولاً فأسفرت عن ثمانية عشر الفاً قتلى من الادوميين وهذه المعركة هي المعركة الوحيدة التي في تاريخ داود انه نصب لها تذكاراً وكان من نتيجتها ان الادوميين ذلوا لداود واستمعدوا له فوضع له محافظين في ادوم كلها وضرب عليهم جزية ما زالوا يؤدونها له ولا عقبه الى ان قام يهورام ابن يهوشافاط فانهم عصوا يهوذا في ايام هذا الملك ورجع اليهم استقلالهم مدة الى ان اخضعهم امصيا احد ملوك يهوذا الا انهم عادوا الى استقلالهم وما زالوا على ذلك الى ايام نبوخذ نصر ملك بابل الذي افتتح اورشليم وسبي معظم اهلها الى عاصمة بلاده في اوائل القرن السادس قبل المسيح

وخلاصة ما ذكرناه ان صالح (البتره) بقيت في حوزة الادوميين مدة تزيد عن الالف سنة قام في اثنائها ملوك كثيرون على ادوم وكثيرون من هؤلاء ملكوا في ادوم قبل ان يملك ملك على بني اسرائيل . وامتد نفوذ الادوميين في اول امرها وفي آخره قبل غزوة نبوخذ نصر الى يهوذا وفلسطين فبلغ الحجاز ومجداً شرقي المدينة (بئر) وشمالها وكانت طريق القوافل تمر عليها من العربية السعيدة جنوباً وخليج فارس شرقاً فكثرت بذلك غنى اهلها وعظم جاههم فاشتدت كبرياؤهم ولا سيما على اليهود جيرانهم وابناء عمهم في اورشليم واليهودية فخر ذلك حتى في نفوذ الانبياء منهم وانذروهم بسوء المنصير . قال ارميا النبي

يخاطب الادوميين . قد غرك تخويفك كبرياء قلبك يارسا كن في محاجيء الصخر المناسك مرتفع الالكمة . وان رفعت كمنسر عشك فمن هناك احدرك يقول الرب وتصير ادوم عجباً كل مار بها يتعجب ويصفر بسبب كل ضرباتها (ارميا ص ٤٩)

وقال حزقيال — هكذا قال السيد الرب من اجل ان ادوم قد عمل بالاتقام على بيت يهوذا وأساء اساءة وانتقم منه لذلك هكذا قل السيد الرب وامتد يدي على ادوم واقطع منها الانسان والحيوان واصيرها خراباً من التيمن والى ددان يسقطون بالسيف (حزقيال ص ٢٥ : ١٢ و ١٣)

وقال حزقيال ايضاً — هكذا قال السيد الرب هانذا عليك يا جبل سعيير وامتد يدي عليك واجعلك خراباً مقفراً . اجعل مدنتك خربة وتكون انت مقفراً وتعلم اني انا الرب لانه كانت لك بغضة ابدية ودفعت بني اسرائيل الى يد السيف في وقت مصيبتهم وقت اثم النهاية لذلك حي انا يقول السيد الرب اني أهيتك للدم والدم يتبعك . اذا لم تكره الدم فالدم يتبعك فاجعل جبل سعيير خراباً ومقفراً واستأصل منه الذهب والآثب (حزقيال ص ٣٥)

وفيا نقلته شاهد لا يرد على ان الادوميين كانوا سكان جبل سعيير الى ايام حزقيال وارميا وان ذلك الجبل كان فيه غير مدينة من جملتها صالح (البترا) وان الادوميين كانوا متبسطين فيها وراء جبل سعيير وان البلاد من تيمان الى ددان كانت خاضعة لهم او على الاقل كانت تمر بها قوافلهم وتجاراتهم لا يعارضها اهل البلاد من العرب اما لحلف كان لهم منهم او رهبة من سطوتهم وخيفة من انتقامهم

اما تيمان المشار اليها في حزقيال فواقعة الى الجنوبي الشرقي من البتراء ولعابها هي تيماء الحالية الى شمالي مدائن صالح . واما ددان فارجح انها دد التي يشير اليها الشاعر العربي بقوله
كانت حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصب من دد

ودد موضع بسيف كاظمة من ارض البحرين والالف والنون فيها مزيدتان للنسبة كما في عبادان ومهلان وجبيران ومحمدان وزبادان وعميران وخالدان وعبد الرحمان نسبة الى عباد ومهلان وجبير ومحمد وزباد وعمير وخالد وعبد الرحمان على طريقة البصرة

بقي علينا في مقالتنا الحاضرة سؤال نسأله ونحجب عليه تأسيساً لما بيني عليه كلامنا في المقالة التالية التي نأتي فيها على ذكر الانباط واصلهم تمة للبحث الذي نحن فيه والسؤال هو من هي القبائل او الامم التي كانت تسكن سوريا وجبال الشراة في ايام نبوخذ نصر .
والجواب ما يأتي

- (١) الاراميون في دمشق وتوابعها وفي ابيّة على البحر الاحمر
- (٢) اليهود اعني سبطي يهوذا وبنيامين ومن بقي في البلاد من بقايا الاسباط العشرة
- (٣) السمرة في نابلس وجوارها
- (٤) العمونيون
- (٥) الموافيون
- (٦) الادوميون
- (٧) النينقيون اهل صور وصيداء والملحقات بها
- (٨) الفلستينيون في غزة وعسقلان واشدود
- (٩) العرب

(١٠) اخلاط من الكنعانيين على اختلاف قبائلهم

هذه هي الشعوب التي كانت في البلاد عند ما غزا نبوخذ نصر سوريا وارض كنعان وافتتح اورشليم . وسرى في المقالة التالية اسم الانباط والنبطيين زيد على هذه الاسماء المارة وعرف في ايام خلفاء الاسكندر ونذكر ان ذلك ما يتعلق باصنامهم والبلاد التي جاؤوا منها قامت الدولة الاشورية الثانية وغلبت على البلاد البابلية كما غلبت عليها الدولة الاولى من قبل فصارت بابل مدينة ولاية لا عاصمة مملكة وحاولت غير مرة أن تسترد استقلالها فلم تنجح . وقسا عليها ملوك اشور سرجون وسنحاريب واشور بانيبال ولاسيما سنحاريب فانهك أسوارها الى اساساتها وهدم قلاعها واحرق المدينة بالنار لم يشفق على شيء ولا رعى حرمة شيء ، وان كان مقدساً بل حرق وهدم حتى المعابد والهيكل فلم يبق ولم يذر . ومع ذلك أعيد بناؤها في ايامه فعادت الى العظمة التي كانت لها بعد زمن قصير . ثم اخذت الدولة الاشورية تضعف واسباب ضعفها معلومة فانها الظلم والعنف وهوى الامراء والكبراء وانهم اكلوا من المعاصي والشهوات ودوسهم الشرائع وكل ما هو مقدس تحت اقدامهم . فبشر الظالمين انهم الباغين ان استدراجهم لا يدوم ولا بد أن يبلغ الكتاب أجله

كان نبو بلاسر والياء على بابل من قبل ملوك نينوى ورأى ما صاروا اليه من الانهماك في المعاصي والشهوات كما رأى ذلك امراء مادي وفارس فتقدم معهم حلفاً على اكتساح الممالك الاشورية فشقوا عصا الطاعة وزحفت جنود البلادين على نينوى وما زالوا على حصارها حتى افتتحوها عنوة وعادوا عنها وقد فلقوها وزرعوها ملحاً واقسموا ، ملحقاتها فوقعت البلاد غربي انقرات للبابليين

إلا ان شعوب سوريا و فلسطين كانت تطمع في عود استقلالها اليها او شيء منه وكانت

مصر أيضاً قد انتهت من خنوها وقام عليها ملوك فيهم همة ولهم مطامع ومنهم فرعون نخو
فطمع هذا في استرداد ما كان للفراعنة من النفوذ في بلاد الشام واقتطاع قسم كركميش
على الفرات . والظاهر ان شعوب سوريا وفلسطين من ادوميين وموابيين وعمونيين
واراميين انحازوا اليه إلا بوشيا ملك يهوذا فانه بقي على ولائه للاشوريين فتصدى لعارضة
نخو إلا انه قتل في مجدو في جهات الجليل . وعاد نخو من ارض ربة في حماه فر على
اورشليم وعزل يهواحاز الذي كان قد ملك مكان أبيه وارسل به اسيراً إلى مصر فمات
هناك وملك اخاه يهوياقيم بدلاً منه وغرم الارض بمئة وزنة من الفضة ووزنة من الذهب
ولما رأى نبوبالاسر ما رأى من تحالف تمالك الشام وانحيازهم الى جانب الفراعنة عقد
اللواء لابنه نبوخذنصر وجعله قائداً اكبر للجنود البابلية فسار نبوخذ نصر حتى جاء الى
كركميش حيث كانت جنود المصريين فالتصفت يده وبينهم معركة هائلة فاز فيها نبوخذ
نصر فوزاً ميبداً وارتد نخو منهزماً لا يلوي على شيء فوضع نبوخذ نصر يده على كركميش
وجعل فيها حامية من قبله ثم تعقب المهزمين الى سوريا وفلسطين

والظاهر ان اغلب شعوب هاتين البلادين انخلمت قلوبهم بعد واقعة كركميش فاذعنوا
بالطاعة لنبوخذ نصر لم يبدوا كبير مقاومة الا صور لشدة ما كان بينها يومئذ وبين المصريين
من استحكام علائق المودة والمصافاة . فان فرعون نخو هذا على ما يذكرون قرب
الصوريين اليه وجعل منهم رؤساء لعمارة له طافوا فيها حوالي افريقيا فمروا برأس الرجا
الصالح ثم داروا من هناك شمالاً حتى وصلوا بوغاز جبل طارق ومنه الى السويس . وفوق
ذلك كان هذا الملك وصل بترعة بين السويس والبحر المتوسط وحول الى السويس تجارة
الهند واليمن وشواطئ افريقيا على البحر الاحمر وكل شواطئ الزنج من باب المندب الى
الموزمبيق فمات بهذا التحويل تجارة ايلة وعاش السويس فأنحصرت من ثم ارباح هذه
التجارة الواسعة بين المصريين والصوريين ولذلك بهم ان تكون الغلبة لمصر او اقله
يقون على استقلالهم وتبقى علائقهم مع المصريين على ما كانت عليه

وجاءت جنود نبوخذ نصر اول مرة الى اورشليم فتلقاهم اليهود بالطاعة والاذعان
ونبذوا عنهم ولاء المصريين إلا أنهم بعد ارتداد الجيوش الكلدانية الى بابل واشتغال
نبوخذ نصر عن الشام باطفاء بعض الثورات الداخلية عادوا الى ولاء مصر وطعموا
بنصرتها فاتقضوا على نبوخذ نصر فبعث هذا غزاة من الكلدانيين انضاف اليهم غزاة
من الموابيين والعمونيين والادوميين والاراميين فضايقوا اليهود . ومات في تلك الاثناء
ملكهم يهوياقيم وملك ابنه يهوياكين مكانه فلم يلبث إلا ثلاثة اشهر ثم استسلم هو وامه

وعبيده ورؤساؤه وخصيانه لبوخذ نصر . وسبي نبوخذ نصر كل اورشليم وكل الرؤساء
وجميع جبابرة البأس وجميع الصناع والافيان لم يبق إلا مساكين شعب الارض وملك
عليهم صدقيا عم يهوياكين

وعاد نحو في ايام صدقيا الى مراسلة اليهود واغرائهم بالعصيان وان يكونوا يداً
واحدة على ملك بابل ومال الى جانب المصريين اكثر الامم المجاورة لليهود ايضاً . وكان
في اليهودية حزبان احدهما لبوخذ نصر واشهر رجاله ارميا النبي وحزب آخر المصريين
كان فيه اكثر العظماء والرؤساء فغلبوا على الملك صدقيا فلم يبق على مخالفتهم فيما لو اراد
واشدت الفتنة في السنة التاسعة للملك وجهروا بالعصيان فعاود نبوخذ نصر الكرة
عليهم ونزلت جيوشه على اورشليم وشددوا عليها الحصار . وكان الملك وحزبه ينتظرون
من حين الى آخر قدوم المصريين لمساعدتهم فخابت آمالهم وعضهم ناب الجوع والفشل
فلم يبق فيهم قوة للمدافعة واخذ كثيرون يتسللون الى الكلدانيين

وعلى ما يظهر لي من مراجعة سفر ارميا ص ٣٨ و٣٩ ومن مراجعة خبر حصار اورشليم
وافتحها في سفر الملوك الثاني ان حزب ارميا النبي قوي في آخر مدة الحصار حتى ان صدقيا
الملك كان يحدث نفسه بالانضمام اليهم والكنه كان ضعيف الهمة متردداً لا عزيمه له وما زال
يسوف الامر حتى خرج من يده وغلب حزب ارميا وفتحوا المدينة للكلدانيين فلم يبق بشر
صدقيا إلا ورؤساء ملك بابل في المدينة في الباب الاوسط فلما رأى صدقيا هو وكل رجال
الحرب هربوا وخرجوا ليلاً من المدينة في طريق جنة الملك من الباب بين السورين وخرج
هو في طريق العربة والكنه أدرك في عربات أريحا واخذ من هناك الى ربله في ارض حماة
حيث كان نبوخذ نصر فخاكوه امامه وحكوا عليه ان يقتل بنوه على مرأى منهم ثم تفقأ عيناه
ويقيد بسلسلتين ويرسل الى بابل

والظاهر ان حزب ارميا كان يطمع بنجاة المدينة اذا هم سلموها للكلدانيين فتسلم من
الحريق والتخريب اقله بيوتهم واموالهم ولكن بدا لبوخذ نصر فامر بدك اسوار المدينة
وهدم هيكلها وما فيها من القصور والبيوت وتجرى بها بالنار وارسل من قبله نبوزرادان رئيس
الشرط لينفذ فيها امره فجاء هذا الى اورشليم في الشهر الخامس في سابع الشهر - وكانت
المدينة اخذت في الشهر الرابع في تاسع الشهر - فاحرق بيت الرب وبيت الملك وكل
بيوت اورشليم وكل بيوت العظماء احرقها بالنار وجميع اسوار المدينة مستديراً هدمها كل
جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والهاربون
الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادان رئيس الشرط ولكنه ابقى

من مساكين الارض كرامين وفلاحين (انظر الملوك الثاني ص ٢٥)
وأوصى نبوخذنصر ملك بابل على ارميا نبوزرادان رئيس الشرط قائلاً خذ وضع
عينيك عليه ولا تفعل به شيئاً رديئاً بل كما يكلمك هكذا افعل معه . فارسل نبوزرادان
رئيس الشرط ونبوشربان رئيس الخصيان ووزجل شراصر رئيس المجوس وكل رؤساء ملك
بابل ارسلوا فاخذوا ارميا من دار السجن واسموه لجديا بن اخيقام بن فسكن بين
الشعب (انظر ارميا ص ٣٩)

وعدرؤساء الجيش الذين كانوا من حزب ارميا ممن سلموا المدينة ان مافعله نبوخذنصر
من احراق المدينة ويوتهم في جملتها غدراً واخلاقاً فضعفت ثقتهم بarmia وبالكلدانيين
ولذلك لما قام بعضهم وهو اسمعيل ابن نثنيا من النسل الملوكي وقتل جديا بن اخيقام الذي
ولاه نبوخذنصر على بقية الشعب لثلاثة أشهر من ولايته تكرر الباقون وتخوفوا ان يتهموا
بمخالفة اسمعيل على قتله ويؤخذوا بدمه فعملته فحولوا وجوههم وجهة مصر وانكسروا
ظاهراً ان يستشيروا ارميا قبل ان يمضوا لما قصدوا اليه واليك ماجاء في سفره في شأن
هذه الاستشارة قال :

فتقدم كل رؤساء الجيوش ويوحانان بن قاريح ويزنيا بن هوشعيا وكل الشعب من
الصغير الى الكبير وقالوا لarmia ليت تضرعنا بقع امامك فتصلي لاجاننا الى الرب الهك لاجل
كل هذه البقية - فيخبرنا الرب الهك عن الطريق الذي نسير فيه والامر الذي نفعله
وقالوا لarmia ليكن الرب بيننا شاهداً صادقاً وأميناً اننا نفعل حسب كل امر يرسلك به
الرب الهك الينا - وكان بعد عشرة أيام إن كلمة الرب صارت إلى ارميا فدعا يوحانان بن
قاريح وكل رؤساء الجيوش الذين معه وكل الشعب من الصغير إلى الكبير وقال لهم :
ماخلاصه البقاء في البلاد على ولاء الكلدان

والا فرغ ارميا من خطابه لجميع الشعب - قال عزريا بن هوشعيا ويوحانان بن قاريح
وجميع الرجال الغناء لarmia انك متكلم بالكذب والرب الهنا لم يرسلك قائلاً لا تنطلقوا الى
مصر لتتقربوا هناك بل باروخ بن نيريا مهبجك علينا لتدفعنا ليد الكلدانيين ليقتلونا وليسبونا
الى بابل الخ (انظر ارميا ص ٤٣)

وظاهر من جوابهم هذا حقدهم على الكلدانيين وتخوفهم من غدرهم وظاهر ايضاً
ان ثقتهم بarmia وصلت الى منتهى الضعف حتى اتهموه بالكذب في وجهه وانه آله في
يد باروخ بن نيريا . ولعلمهم في تلك الاثناء وصلتهم رسائل من مصر او من احلافهم في
صور فردتهم الى رايهم القديم من المحاربة والولاء للمصريين ومن ثم قاموا وذهبوا الى مصر

وأخذوا ارميا معهم بالرغم عنه ولم يسمعوا لصوته. وفي التقاليد اليهودية انهم قتلوه في مصر. ولعلمهم لما اكثر هناك من ملائمتهم وقرفتهم بمعاصيهم وما كانت تأتيه نساؤهم من التدور والتقتير وسكب السكائب للملكة السماء اجترأوا عليه فانكروا نبوته واستخفوا بكنوته وأهموه كما أنهم شمعا النحلومي من قبل انه مجنون منبيء وداعي فتنة وسجس فشكوه إلى فرعون او أحد عماله بالخيانة والتحزب للبابليين فأمرهم به فقتلوه

انا لانعلم تفاصيل اخبار نبوخذ نصر واعظم ما حفظ لنا منها انما هو المذكور في سفر ارميا وفيه يظهر ان الرسل كانت تردد بين صدقيا ملك يهوذا وبين الملوك الجاورين اعني الادوميين والمؤابيين والعمونيين وملك صور وملك صيدا وكذلك كانت تردد الرسل والمراسلات بين الذين كانوا سبوا الى بابل من يهوياكين وبين الذين بقوا في اورشليم وغاية كل هذا التراسل انما هو الفتنة وحمل اليهود على العصيان . والظاهر من رسائل ارميا الى المسييين أن كان انبياءهم يمتونهم بقرب العودة من السبي . واليك صورة رسالة منه الى المسييين ارسلها قال فيها : هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لكل السبي الذي سيئته من اورشليم الى بابل ابناؤا بيوتاً واسكنوها واغرسوا جنات وكاوا ثمرها خذوا نساء ولدوا ذين وبنات وخذوا لبيكم نساء واعطوا بناتكم لرجال فيلدين ذين وبنات واكثروا ولا تقلوا واطلبوا سلامة المدينة التي سيئتم اليها وصلوا لاجلها إلى الرب لانه يسلمها يكون لكم سلام لانه هكذا قال رب الجنود اله اسرائيل لا تغشكم انبياءكم الذين في وسطكم وعرافكم ولا تسموا لاحلامكم انتي تتحلمونها لانهم انما يتبأون لكم باسحتي بالكذب انا لم ارسلهم يقول الرب (ارميا ص ٢٩)

واعجب من ذلك ان حينما بن عزور النبي (او المنسي) يكلم ارميا في بيت الرب امام السكينة وكل الشعب بما يأتي : - هكذا تكلم رب الجنود اله اسرائيل قائلاً قد كسرت نير ملك بابل في سنتين من الزمان ارد الى هذا الموضع كل آنية بيت الرب التي اخذها نبوخذ نصر ملك بابل من هذا الموضع وذهب بها الى بابل وارد الى هذا الموضع يكتبان بن يهوياقيم ملك يهوذا وكل سبي يهوذا الذين ذهبوا الى بابل يقول الرب لا بني اكسر نير ملك بابل - وقال ارميا النبي هكذا ليضع الرب . ارميا ص ٢٨

والذي أراه من تكرار عصيان اليهود ان أقوال هؤلاء الانبياء المشار اليهم والاماني التي كانوا يمتون بها الشعب لم تكن عن مجرد هوس وتكهن لاسنده بل لا بد لذلك من سبب ولعل السبب كان اشتباكه نبوخذ نصر بحروب العميليين والمرب وتغلغله في صحراء العربية القليلة المياه وجبالها المسرة المسالك فكانوا يظنون ان الدائرة ستدور عليه هناك

فيتغير الملك وتتغير السياسة بتغيره . وفيما جاء في آخر سفر ارميا وآخر سفر الملوك الثاني ما يستدل به على ان كان موالاته ومحالف بين اويل مرووخ بكر نبوخذ نصر وبين يهويا كين ملك يهوذا فان اويل هذا - وكان قد سجن في ايام ابيه حيث كان يهويا كين مسجوناً - لما تولى منصة الملك بعد ابيه رفع رأس يهويا كين وأخرجه من السجن وجعل كرسيه فوق كراسي الملوك الذين معه في بابل وكان دائماً يأكل الخبز أمامه كل ايام حياته. فلا يبعد ان تكون هذه الموالاته هي الاس الذي بني عليه حنذا بن عزور نبوته التي نقلناها آنفاً دعنا نسأل هنا لماذا سجن اويل مرووخ وهو بكر نبوخذ نصر . انه لا يعال عن سبب سجنه تمليلاً اقرب الى القبول وينطبق على ما صنع يهويا كين حال تسننه اريكة الملك وفي الوقت نفسه يوافق ايضاً آمال اليهود المشار اليها في سفر ارميا إلا ان اويل مرووخ (وكان سفياً غراً على ما نقل من اخباره) أغري بخلع ابيه والاستيلاء على عرش المملكة دونه أثناء غيابه في غزواته وان يهويا كين وامراء يهوذا المسيبين كانوا ممن دخل معه في هذه المؤامرة ان لم يكونوا هم الذين حملوه عليها وحسنوها له ومنوه بأحياز أمتهم وأحلافها الى جانبه فوعدهم انه اذا تم له الامر يردهم الى بلادهم ويكونون من جملة اوليائه وأعوانه في غربي الفرات . واتصل طنين هذا الوعد بهؤلاء المتنبيين فهتفوا به إلى اخوانهم في اليهودية وحركوهم الى الفتنة والعصيان ووافق ذلك غرض المصريين وأشياعهم ملوك صور وصيداء وادوم وهواب وبني عمون فقلب حزب الفتنة على حزب ارميا حزب السلام والخضوع للبابليين

ولا يبعد ان حزب نبوخذ نصر كتبوا اليه بحركة الافكار هذه واطعموه على ما يدور من التراسل بين المسيبين واخوانهم في اليهودية وبين هؤلاء وبين المصريين وأحزابهم أيضاً وان نبوخذ نصر بحث فوجد مجالاً للظن في ابنه فسجنه وما زال في السجن الى أن توفي ابوه ثم وجه نبوخذ نصر بأسه على اليهودية ومدن فينيقية اما اورشليم فاستمرت سنتين تحت الحصار واما صور العظيمة فقالوا انها لم تؤخذ إلا بعد حصار ثلاث عشرة سنة وبسقوطها دانت له البلاد غربي الفرات من كركيش الى العريش وأصبحت كلها ولايات كلدانية ليس فيها لامة ولا مدينة استقلالاً أحلاماً ولا شبه استقلال

ويهمني في مقالتي هذا ان أسأل لماذا ياترى تشدد نبوخذ نصر كل هذا التشدد على صور حتى بقي على حصارها ثلاث عشرة سنة المجرد الطمع بما كان فيها من الثنى واثنائس ما اظن . فان نبوخذ نصر كان يعلم ما بين صور وقرطاجنة من أواصر القربى والملائق الخاصة وكان يعلم ان الصوريين لا يسلمون اليه مدينتهم قبل أن تنقل مراكبهم كل ما فيها

من أهوالهم ونفائسهم الى قرطاجنة حيث لا تصل يده الى شيء منها . وكانوا مع ذلك لا يترددون أن يفقدوا منه مدينتهم بالاموال الطائلة فيما لو أراد بشرط ان يتركهم على ما كانوا عليه من استقلالهم في مدينتهم وتجاراتهم فتشده في الحصار وتشدهم في الدفاع كان اذن لغير مجرد النهب والسلب على ما قد يزعم وان كان يصح ان يكون من جملة الاسباب ايضاً والسبب الرئيسي على ما أرى هو ان نبوخذ نصر كان ملك مدينة تجارية وشعب اشتهروا بالتجارة من قديم الزمان وزاحموا فيها غيرهم من الأمم فلذلك لم يرض من الصوريين أن يفقدوا منه مدينتهم بالمال والجزية السنوية وتبقى مدينتهم سيدة التجارة تفتح أبوابها لمن شاء وتغلقها في وجه من شاء على عادتها بل أراد أن تكون بابل هي سيدة التجارة ومرکزها وان تكون صور ميناء لها لا تعارض تجارتها ولا تجارها على ما هي عليه كاتون والاسكندرية وغيرها من مدن التجارة في الشرق بالنظر الى مدن اوربا التجارية في الوقت الحاضر وهذا ما كان يأباه الصوريون ويرونه موتاً لتجارتهم الواسعة وبالتالي موتاً لعظمتهم وغناهم ولذلك اشتد دفاعهم وطالت مدته كما ألعنا واشتد صبر نبوخذ نصر وعزمته حتى كان له الفوز اخيراً . فتم له ما أراد واصبحت صور فرضة لبابل ولتجار بابل يحملون اليها ومنها تجاراتهم غير معارضين

عند تقارب نهر الفرات والدجلة على بضعة ساعات الى الجنوب من مدينة بغداد الحالية على عدوة الفرات كان موقع مدينة بابل عاصمة شعمار او بلاد السكندان . وهي بلاد جيدة الهواء والماء والتربة وتكاد تكون من اخصب بقاع الدنيا فان غلة المد المزروع من الحنطة لا تنقص عن مئة ضعف وقد تبلغ الاربعماية . ومساحتها لا تقل عن اربعين الف ميل مربع كان الفرات والدجلة يسقيان كل شبر من الارض فيها . والى الشمال الغربي من شعمار ارض الجزيرة وهي اكبر منها مساحة وفيها بقاع لا تقل عنها خصباً والى شرقها مملكة ايران الحالية والى غربها صحراء السماوة حتى تبلغ سوريا وشطوط المتوسط

والناظر الى الخارطة يرى الفرات والدجلة اقرب طريقين واسهلها للتجارة يصلانها أي بابل بالبلدان المجاورة الى مسافة مئات من الاميال شمالاً وشمالاً غربياً واما الى الجنوب فيصلانها بجليج فارس نخايج عمان في بحر الهند والعرب ثم باب المندب والبحر الاحمر والتأمل ايضاً يرى كل طرق البلاد الى الشرق والغرب والشمال والجنوب تنصب اليها او تفرع منها . وبالاجمال يقال ان موقعها كان في قلب الممالك القديمة ونقطتها من احسن النقط التجارية في ذلك الحين . وقيل ان الذين أسسوها انما أسسوها ابتداء للتجارة فلم تلبث ان صارت اعظم مدن السكندان ومركزاً الدين والادب ايضاً شأن كل المراكز

التجارية المهمة في العصر الخالية . ومضى على تأسيسها نحو من ثلاثة آلاف سنة وهي مركز دين وأدب وتجارة لا يضاهاها في ذلك مدينة من جميع مدن آسيا من المتوسط إلى اطراف خراسان وبلاد السند غرباً وشرقاً ومن البحر الاسود الى سواحل حضرموت شمالاً وجنوباً . وقد اشتهر أهلها بالصناعة والتجارة شهرة لا تقل عن شهرة الصوريين والصيدونيين وغيرهم من الامم الفينيقية المعروفة والمشهورة

لما قام نبوخذ نصر الكبير وكان يعلم مالمدينته من حسن الموقع التجاري ويعلم ايضاً ما للتجارة من الدخل في عظمة الملوك والممالك توجهت خواطره لجمعها مركز تجارة العالم . وكان فرعون نحو معاصره قد حول طريق تجارة الهند والبلاد العربية من ايلة الى السويس فأراد هو ان يصرف هذا الطريق الى بابل . ولما رأى ان ذلك لا يتم له على ما يريد إلا باخضاع العربية واقامة المستعمرات التجارية الكلدانية فيها وجه غزواته الى ارض البحرين وعمان فاحضعها لسلطته وأقام فيهما المستعمرات التجارية لقومه وهم المعروفون بالنبط فنصت البلدان بأهل سواد العراق وما زالوا هم الغالبون على ارض البحرين ومعظم أهلهم منهم الى بدء التاريخ المسيحي

ووجه ايضاً غاراته الى نجد والحجاز وممالك حاصور فاحضع جميع البلاد لسلطوته من الابلة شرقاً الى ايلة غرباً ومن ايلة شمالاً الى المهجم جنوباً والمهجم مدينة على وادي مررد غربي صنعاء عاصمة اليمن واحتل النقط التجارية على البحر الاحمر ما بين هاتين المدينتين اعني ايلة والمهجم فتوارد اليها تجار بلاده الانباط وانتشروا في البلاد وسكنوا هناك واختلطوا بتجار العرب وبقي لهم بينهم النفوذ الاول الى ما قبل أيام بمبيوس القائد الروماني الشهير بعقد او بعض عقود من السنين

ولنرجع الآن الى الادوميين فانهم كانوا في اول ما غزا نبوخذ نصر اليهودية يملكون طريق التجارة من ايلة الى الخليج الفارسي فلما غزا ابناء عمهم وافتتح عاصمتهم وخرّب بلادهم وسبي عظاءهم وقتل مقاتلتهم ولم يترك في البلاد إلا المستضعفين والمساكين من اهل الفلاحة والزراعة شتموا بمصيبتهم وحدثوا أنفسهم بضم اليهودية الى املاكهم ولم يعلموا ما كانت الايام وتداير نبوخذ نصر تعده لهم . وفيما هم في شماتهم واحلامهم بضم بلاد اليهودية الى بلادهم اذا بجنود الكلدان واعلامهم ترحف على العربية جنوباً وغرباً قدوخوا نجد والحجاز واستلحموا بني عدنان حتى كادوا يقنونهم قنهاربوا منهم في جميع الجهات الى حضوراء وتهامه وجنوبي اليمن واتبعهم الكلدانيون وغطت خيولهم ورجلهم البلاد من الابلة الى ايلة . فاین ذهب الادوميون؟ لاشك انهم تهاربوا من امام الكلدانيين

الى جهات عاصمتهم سالع او البتراء فلما نزلت جنود الكلدان عليها أصابهم ما أصاب اليهود اي هرب اهل القرى وانزاع وكثيرون من اللاجئين من الاطراف الى الامم المجاورة وبقي من بقي في المدينة تحت الحصار وصبروا على شدته مدة ثم لما لم يروا بداً من التسليم سلموا للمتصر فقتل من قتل وسي من سبي وابقى من ابقى اما المدينة فلم يفعل بها ما فعله بأورشليم من الهدم والتحريق بل ابقى عليها وجعلها محطة لقوافل عاصمته فاتقل اليها كثير من التجار ان لم يكن هو نقاهم وجعل على المدينة والياً من قبله فصارت مدينة بابلية أي النفوذ والسيادة فيها للابناط وان كان أهلها خليطاً من الفريعيين اعني الادوميين والبابليين وما زالت كذلك كل أيام نبوخذ نصر وأيام خلفائه من ملوك بابل الى ان قامت الدولة الفارسية وورثت ممالك الكلدان ومدن تجارتهم فكانت من جعلتها مدينة سالع ولم يتعرض الفرس لهم بشيء وتركوهم على لغتهم وتجارتهم واكتفوا منهم بالخضوع والجزية ولضعف المدنانين وممالك حاصور بما قتل منهم نبوخذ نصر اصبحت البلاد المجاورة لسالع تبعاً لها وما زالت تتقوى سنة بعد سنة لما لها من المنعة الطبيعية وبما كان يتدفق اليها من غنى التجارة كل ايام دولة الفرس الى ان قامت دولة اليونان فاذا بهامدينة قوية غنية ذات نفوذ في الحجاز ومجد الى خليج فارس ومن ايته الى جنوبي جدة على ساحل البحر الاحمر وبعبارة اخرى اذا بها مدينة ببطية يلف حولها كل النقط التجارية في الحجاز وتهاة ونجد والبلاد التي كان دوخها نبوخذ نصر تأميناً للتجارة بين عاصمته وبين شواطئ البحر المتوسط والبحر الاحمر عن طريق شمالي العربية . فهذا هو أصل النبطيين في البتراء وايلة الذين ذكرهم لنا التاريخ عند اول قيام الدولة اليونانية . وقد اعتمدت على الاختصار والاجمال في حروب نبوخذ نصر مع العرب لان الكلام طال عن حروبه في اليهودية

كنت أقدر أني أنهى هذه المقالة في العدد الماضي من المقتطف ولكن الكلام تغلغل بي الى اكثر ما قصدت اولاً فاستهوتني حروب نبوخذ نصر في اليهودية الى ذكر مسائل كثيرة رأيتها تستنتج من كتابات ارميا النبي التي راجعها في اثناء كتابتي القطعة المارة . وقد راجعها لانيها كتابات مقدسة فقط بل لانيها ايضاً كتابات رجل معاصر فينبغي الاعتماد عليها والوثوق بها كما يعتمد على الآثار المخطوطة في الاجر البالي بل هي من بعض الوجوه اخرى بالوثوق من كتابات الاجر التي سطرها ملك بابل عن نفسه او سطرها له قوم من مؤرخيه لان هؤلاء كانوا يتلفون الى مرضاته باعظام شأنه والاطراء له على ما أتى به سواء كان ما أتى به يستحق الاطراء او لا يستحقه على حين ان النبي ارميا لم يدفعه الى

كتابة ما كتبه من اخبار الملك شيء من هذا ولذلك هي كما قلنا اخرى بالوثوق من كتابات المعاصرين من اهل بابل ايّما كانوا ومهما كانت صفتهم

كانت بابل في أيام عظمتها الاولى متقدمة على نينوى فلما تقدمتها نينوى عظم عليها ذلك وحاول ملوكها أو ولائها أو اهلها مراراً ان يرجعوا بها الى سابق عهدهما من العظمة والسودد فلم يفلحوا الى ان قام نبوبلاسر فاستغتم فرصة انحطاط الاشوريين وحالف الماديين عليهم على ان يكون هو وارث عز اشور وولاياتها في الجزيرة العراقية وجميع البلاد غرب الفرات بل في مصر وبلاد العرب ايضاً فترجع بذلك بابل الى عزها ومكاتها الاولى قبل ان بلغت نينوى ما بلغت في أيام ملوكها العظام الذين كانوا من كبار قادة العصور الحالية

فلما كانت موقعة كركيش واتصر نبوخذ نصر ذلك الانتصار العظيم على فرعون نخو وجيوشه رأى في انتصاره ما يحقق له تلك الاماني التي كانت تجول في خاطر ابيه فشر لتحقيقها وما زال يحارب حتى رأى عاصمته مدينة العلم والغنى والدين والسلطة وبعبارة اخرى اعظم مدينة في تلك الايام فانه اخضع لسطوتها الجزيرة العراقية والديار الشامية من كركيش الى غزة بما فيه بادية الشام من الابله الى ايلة وجعلها كلها ولايات بابلية تدبر بطاعته وتؤدي اليه الجزية

وحارب العرب ايضاً في بلادهم فوطىء نجداً والحجاز واستأجهم اهلها من العرب العدنانيين ودوخ تهامة واليمن وجعلها من ولاياته واسكن قومه من تجار البابليين والسكلدان في قلب اليمن في مخلاف جهران وحقل قتاب وفي اكثر الفرض البحرية من المهجم الى ايلة فضلاً عن انه اخضع عمان وارض البحرين . وكانت آخر بلاد حاربها مصر فتغلب على اهلها واذلم لسطوته ورجع من هناك بالاسلاب والغنائم الكثيرة

ومما هو محقق لا يرتاب فيه انه حارب الادوميين وخرب جبلهم سعي . وقد مر بنا اشارة النبيين ارميا وحزقيال الى الادوميين وما توعداهم به من الحراب والدمار عن يد نبوخذ نصر . فقم هذا الوعيد وكانت جبال عيسو خراباً وميراثه لذئاب البرية في ايام ملاخي (انظر هذا السفر الاصحاح الاول)

لم تطل ايام نبوخذ نصر بمد ان دوخ مصر حتى مضى في سبيله ولكن لم يقم بعده مثله على بابل وربما لم يقم قبله من هو اعظم منه إلا ان يكون الملك همورابي وكذلك لم تطل مدة الدولة البابلية بعد وفاته إلا نحواً من ثلاثين سنة . غزا الفرس بعدها بابل تحت قيادة كورش فافتتحوا المدينة وافتتحوا بافتتاحها كل الولايات البابلية التي كانت لتبوخذ نصر لان هذه جميعها خضعت للفرس من غير ان يرسي عليهم سهم واحد في

كل عبر النهر حتى الصوريون كانوا يأتون بخشب الارز من لبنان حسب إذن كورش ملك فارس لم (انظر سفر عزرا الاصحاح الثالث)

وبقيت لغة الدواوين في الدولة الفارسية على عهدا في ايام نبوخذ نصر أي اللغة الارامية فكانت القيود والسجلات والمعارض تكتب فيها وترجم اليها ايضاً. وقد ذكرنا ما ذكرناه توطئة للقول ان هيئة البلاد في فلسطين وشمالي العربية لم تتغير في ايام الدولة الفارسية عما كانت عليه في ايام نبوخذ نصر بل بقيت على حالها نسخة واحدة الى ان قامت دولة اليونان ولما قام الاسكندر الكبير وغزا مملكة فارس خضعت له امم سوريا وفلسطين التي كانت خاضعة للفرس لم تقم امة منها في وجهه إلا الصوريون ثم مات الاسكندر واقتسم قواده البلاد . وكان من جملتهم انتيغونوس وابنه ديتمريوس وعلي عهد هذين نحو ٣١٦ ق . م ذكرت مدينة البتراء وكانت حينئذ مدينة قوية ذات غنى وبجارة تتجاسرون غيرها من المدن على مقاومة ديتمريوس بن انتيغونوس وكان اهلها يعرفون بالنبطيين وكانوا متميزين عن سواهم من بقية الامم اعني الادوميين والموايين والعمونيين والعرب واليهود. وواضح مما ذكرناه سابقاً انهم أي النبطيين لم يكونوا في البلاد ايام الفتح البابلي ولا استجدوا فيها على عهد الدولة الفارسية فلم يبق لنا إلا القول انهم نزلوا البتراء في ايام نبوخذ نصر وانهم جاءوا من بابل وجوارها لان لغتهم كانت اللغة الارامية

ولننظر الآن فيما يؤيد هذا المدعي ولا بد في تأييده من الاستناد على سند تاريخي وهذا السند لانعدامه في اسفار المكابيين فان السفر الاول من هذه الاسفار يذكر لنا الانباط في ايام يهوذا المكابي واليك ما جاء لصاحب هذا السفر قال في الاصحاح الخامس والعدد ٢٤ و ٢٥ مائه

واما يهوذا المكابي ويونان اخوه فعبرا الاردن وسارا مسيرة ثلاثة ايام في البرية فصادفا النباطيين (النباطيين) فتلقوهم باسلام وقصوا عليهما كل ما اصاب اخوتهم في ارض جلعاد وان كثيرين منهم قد حصروا في بصره وياصر وعام وكسفور ومكيد وقرنايم وكلها مدن حصينة عظيمة وانهم ايضاً محصورون في سائر مدن ارض جلعاد والقوم مستعدون لمحاصرهم غداً في الحصون والقبض عليهم وبادتهم جميعاً في يوم واحد — الى ان يقول فارسل يهوذا رجلاً يكشفون امر الجيش فاخبروه قائلين ان جميع الامم التي حولنا قد انضمت اليهم وهم جيش عظيم جداً وقد استأجروا العرب بظاهروهم ونزلوا في عبر الوادي وجاء ايضاً في الاصحاح ٩ والعدد ٣٣ — ٣٥ وبلغ ذلك يوناتان وسمعان اخاه وجميع من معه فهربوا الى برية تقوع ونزلوا على ماء جب اسفار وارسل يوناتان بوخا أخاه

بجماعة تحت قيادته يسأل النبطيين اولياءه ان يبيروهم عندهم الوافرة
والذي يظهر من الإعداد التي ذكرناها . اولاً ان النبطيين كانوا اولياء ليهودا المكابي
واخوته . ثانياً أنهم أمة غير العرب وغير الموايين والعمونيين والادوميين . ثالثاً ان
مركزهم كان يبعد ثلاثة ايام في البرية شرقي الاردن من حيث عبر المسكن بقرب اريحا .
رابعاً ان قد كان عندهم عدة وافرة يمكنهم الاستغناء عنها واعادتها . وكل ذلك يشير الى
انهم كانوا في البتراء قرب بصرى او باصر لان هذه المسافة أي ثلاثة ايام لا تنطبق على مدينة غير
البتراء ويشير ايضاً الى انهم كانوا تجاراً لان عندهم كثير من الاسلحة يستطيعون ان يبيروها
ومن يراجع سفر المكابين في الاصحاح الخامس يرى ان اول مدينة وصلها يهودا
واخوه بعد ان تركها اصحابهم النبطيون كانت مدينة باصر او بصرى ثم انصرفوا من هناك
الى المصفاة وهذا لا يدع مجالاً للشك ان النبطيين كانوا في البتراء لان باصر او بصرى اقرب
مدينة اليها اذا توجه اليها جهة البرية

ثم يظهر لنا من مراجعة تاريخ يوسفوس انه كان يعتمد على سفر المكابين وقد تابعه
حرفاً بحرف ومآل هذه المتابعة انه كان يعرف النبطيين المشار اليهم وانهم قوم متميزون
عن الادوميين والعرب والعمونيين وكتابات صريحة ان البتراء كانت مدينتهم وانهم مازالوا على
استقلالهم عن العرب الى ايام اسكندر جانيوس بن ارستو بولوس بن يوحنا هرقاتوس ابن
سمعان اخي يوناتان ويهودا المكابي فانه بعد وفاة هذا الملك اليهودي ورد اول ذكر يفهم
منه ان الانباط او النبطيين في البتراء خضعوا للعرب وكان لارمياص ملكهم قصر فيها أي
في البتراء . ومن ذلك الحين فما بعده اخذ ملوك العرب الاريتاسيون (أي الذين اسماء
ملوكهم اغلبها اريتاس او حارثة) يلقبون بملوك النبط ويطلق عليهم تارة لقب ملك العرب
وأخرى ملك النبط ومع ذلك كان ظاهراً جلياً ان الجنسية مختلفة بين العرب والنبط وان
كان الملك واحداً . وما زال الامر كذلك الى ان انقرض ملك هؤلاء من البتراء وجعلت
ولاية رومانية سنة ١٠٥ بعد المسيح

ماذا يعرف مؤرخو العرب عن النبط

يعرف العرب ومؤرخو العرب ان النبط غير العرب وانهم كانوا يسكنون أرض البحرين
وسواد العراق وأن كان منهم قوم يعرفون بانباط الشام وانهم كانوا في عمان ايضاً وفي قلب
البلاد اليمنية في حقل قتاب واطلي جهران اما في عمان فاستعربوا وأما في أرض البحرين
فمع ان العرب ازالوهم من هناك وسكنوا مكانهم في هجر البحرين وذلك في بدء التاريخ المسيحي

او قبله بـمدة غير معروفة إلا انها ليست طويلة عاد الانباط فكثروا في أرض البحرين حتى غابت نبطيتهم على عروية العرب وعليه المثل المشهور المتواتر عند العرب اهل عمان نبط استعربوا واهل البحرين عرب استنبطوا . وفي اول الفترحات الاسلامية كانوا يسمون الموالي ايضاً وكانوا في سواد العراق من البصرة الى الكوفة

وكان أكثر اصحاب المصانع وارباب التجارة هناك منهم واشتهر بعضهم بالبخل وقرض الاموال بالرباء لرؤساء القبائل العربية واشتغل بعضهم بالعلم والفقه وكان منهم كثيرون من علماء النجف واللغة واستقضى منهم جماعة منهم نوح بن دراج . وكانوا يعيرون بجهل انسابهم وعليه يروى الحديث عن الامام عمر بن الخطاب لا تكونوا كنبط السواد اذا سئل احدكم عن نسبه قال انا من بلد كذا . وبالاجمال نقول ان العرب يعرفون الانباط معرفة تامة لا اشتباه فيها منذ اوائل التاريخ المسيحي الى اليوم وليس منهم يشبهه عليه الفرق بينهم وبين العرب . لكن ايس من ينكر ايضاً ان الانباط هم والعرب من الفصيحة السامية فان العرب يرجعون الى سام عن طريق يقطان بن عابر بن شالح بن ارفكشاد والنبط يرجعون اليه رأساً فانهم اولاد ارام بن سام وقد اختلف هؤلاء الاراميون من عهد بعيد جداً بالعرب وامتزجوا بهم في الديار البابلية فانقلب العرب هناك انباطاً وانقلب النبط في شبه جزيرة العرب عرباً . قيل ويرجح هذا القول ان الكلدان في عهد نبوخذ نصر كانوا عرباً سكنوا بلاد بابل ويظن البعض ان لفظ الكلدان محرف عن بني خالد قبيلة لانزال عرباً الى حد هذه الساعة في تلك الجهات قرب الحفير وما يجاوره

عود على بدء

قام نبوخذ نصر على عرش بابل نحو سنة ٦٠٧ قبل المسيح فوجه غزواته الى الحجاز ونجد واستاحم العدنانيين هناك حتى كادوا يفنون وضرب الادوميين وخرّب جيلهم سمير واخذ منهم مرا كزهم التجارية التي كانوا اقاموها بين ايلة وخليج فارس وكان قبل ذلك حارب ابناء عمهم في اليهودية واجلا قسماً كبيراً منهم الى بلاد بابل وهرب كثيرون ممن بقي الى ارض مصر فقل الساكن في بلادهم وكانت اخصب بالطبع من اكثر اراضي ادوم فانقل كثيرون من الادوميين وسكنوا في جنوبي يهوذا الى مدينة حبرون المعروفة اليوم بالحليل ولما اشتد عليهم نبوخذ نصر واخذ مدينتهم صالح (البراء) وما سواها من المراكز التجارية في تيباء والحجر تهارب كثيرون من وجهه وسكنوا في اليهودية ايضاً وخت بلادهم من كثيرين منهم . وقد ألمحنا ان نبوخذ نصر كان تاجراً وملك قوم تجار وانه قصد

ان يحول وحول طريق التجارة عن ايلة والسويس الى عاصمة بلاده . فمن المستحيل اذن ان يخرب المراكز التجارية بين خليج فارس وشواطئ المتوسط فلا بد اذن من ان يكون بعد حروبه في شمالي العربية قد اسكن هذه المراكز اقواماً لا يخاف عاديتهم ومن غير العرب الذين حاربهم ايضاً وكاد يفنيهم وليس من يقوم بهذه المهمة قياماً احسن من قومه النجار من بابل وجوارها فجاءوا واستوطنوا تلك الجهات ومن جملتها الحجر وتيماء والبراء وغير هذه من المراكز التجارية البرية وعلى سواحل البحر الاحمر وخالطهم في جميع هذه المراكز ضعفاء الادوميين اصحابها الاولين وبعض العرب ولعل الادوميين كانوا اكثر عدداً او يماثلون النبط إلا ان العز والصولة كانا للنبط لان الدولة منهم والتجارة في ايديهم . وما زالوا كذلك كل ايام نبوخذ نصر وَايام خلفائه الى ان قامت الدولة الفارسية فلم تتعرض لهم وتركتهم وشأنهم وحكمهم حكم غيرهم من الامم الخاضعة لهم . بل كان الفرس من جهة خيراً لهؤلاء المستعمرة من النبط من نفس دولتهم البابلية لان الفرس لم يكونوا تجاراً فلم يزاخموهم على تجارتهم وضعفت تجارة بابل بما كان من انتقال دار الملك عنها فقلت مزاحة اهلها لهم واصبح قسم عظيم من التجارة ينقل رأساً الى محطاتهم التجارية من غير ان يمر على بابل اي رأساً من خليج فارس فكثرت غناهم مع الايام وعلى نسبة ذلك زاد من قوتهم واصبح العرب حملة لتجارتهم ومصرفين بأمرهم . وانتقل اليهم عز الادوميين وساطتهم واصبح كثير من قبائل العرب ينفرون على صراخهم اذا استصرخوهم وبقوا على ذلك نحواً من ٢٠٠ سنة ولما احتك بهم القائد اليوناني انتيفونوس وابنه ديمتريوس بعد موت الاسكندر وجدهم على ما وجدهم عليه من القوة ووجد ألقاً من قبائل العرب حواليتهم ينفرون معهم اذا استنفروهم وبقوا على عزهم هذا حقبة من الدهر إلا ان الايام لاتدوم على حالة واحدة فان البطالة قاموا في مصر واصبحت تراناً لهم فوجهوا عنايتهم الى البلاد فازدادت ساكناً وازدادت علماً وصناعة وتجارة فاصبح كثير من موانئ البحر الاحمر في ايديهم وغبروا خطة التجارة شيئاً عما كانت عليه فتحول قسم كبير من التجارة عن البراء وكذلك اضطربت الاحوال في بابل والجزيرة وخليج فارس وكثرت الحروب والمخاضات هناك وقامت سلوقية نزاحم بابل على التجارة فضعف شأنها نوعاً عما كان عليه قبلاً . وفوق ذلك انشأ ملوك سوريا في انطاكية خطاً تجارياً من العراق الى مدينتهم فقلل هذا شيئاً من اهمية البراء وقل غناها على نسبة ذلك فقلت قوتها . وعادت العرب فكثرت في البلاد حولها في بلاد مواب وبني عمون وما بين غزة وجبال الشراة والظاهر ان كثيرين من عرب اليمن وحضرموت من قبائل قضاعة هاجروا في بداية المئة الاخيرة قبل المسيح الى جهات

فلسطين وسوريا فاصبح لهم شأن وشوكة واجتمعت حولهم كلمة العرب لما اعتاده العدنانيون من الاتقياد اليهم فاضف ذلك من سطوة البتراء ونفوذ تجارها ورؤسائها وخالط رؤساء العرب هؤلاء اهل البتراء لانهم اهل حضارة مثلهم وعمروا قصورهم في مدينتهم فكانوا يقوون سنة بعد سنة ويكثرون واولئك باقون على ما كانوا عليه إن لم نقل أنهم كانوا يضعفون وما زالوا كذلك حتى كثر العرب النبط واصبحوا ذوي السؤدد والرئاسة دونهم وانتقل اليهم الامر فاصبحوا ملوكاً عرفوا بملوك النبطيين في البتراء ولا يبعد أنهم كان لهم ملك خاص قبل ان استولوا على البتراء وجملوها عاصمة لهم في ايام اريتاس معاصر بمبيوس القائد الروماني المشهور بل لا يبعد أنهم استولوا على هذه المدينة قبل زمن بمبيوس فكان لهم رئاسة وسؤدد فيها ولكن لم يكن لهم ملك على شاكلة ما كان لهم في ايام اريتاس هذا ومن جاء بعده الى ان انقرض ملكهم في سنة ١٠٥ قبل المسيح كما المعنا

وخلاصة ما نتخيم به بحثنا هذا ان الانباط خليط من الادوميين وتجار من السكلدانيين والبابليين الذين جاءوا الى البتراء في ايام نبوخذنصر وانضم اليهم من حين الى آخر من تحضر حواليهم من العرب العدنانيين اولاد اسماعيل ثم انضاف الى هؤلاء كثيرون من مشايخ ورؤساء القحطانيين من بني قضاة الذين هاجروا من اليمن وحضر موت في اول المئمة الاولى قبل المسيح او ما قبل ذلك بمدة قصيرة . ولا يبعد ان يكون انضم اليها ايضاً كثيرون من اليهود كانوا يسقطون عليهم من حين الى آخر للتجارة تارة وللحماة بهم تارة اخرى فان الذين سكنوا المدينة وجهات خيبر وكثروا هناك لا يستبعد عليهم ان يسكنوا في البتراء ايضاً فامتزجت كل هذه القبائل معاً في مدينة البتراء وعرفوا بالنبط إلا اني ارجح مما مر ان الدم الغالب فيهم هو دم العشيرة الارامية عشيرة ابراهيم الخليل . ومن البتراء انتقلوا الى مكة والطائف ومنهم نشأت بيوت من اعظم بيوتات العالم كما سنين ذلك في المستقبل ان شاء الله



قيدار وممالك حصور

استانفان نظر اصحاب الانسكلويديات ومماجم الكتاب

في اثناء بحثي عن اصل الانباط في البتراء واجعت ما كتب في سفر ارميا النبي عن غزوات نبوخذنصر (او بختنصر) وهي كتابة يعتمد عليها لان النبي كان من معاصري نبوخذنصر ومن ثم فالوارد عنه في سفره هو من اصح وأثبت ما جاء عن هذا الملك لايدانيه في الصحة شيء الا ما ورد في الاجر البابلي مما كتبه بختنصر نفسه او احد معاصريه فوجدت ان من جملة الامم التي حاربها بختنصر القيداريين وممالك حصور . اما القيداريون فمن وصفهم لا يشك محقق انه يعني بهم العرب العدنانيون في الحجاز وشمالى العربية . واما ممالك حصور فلا يزال فيها رأي لباحث

راجعت الانسكلويديا البريطانية فلم أر فيها أدنى اشارة الى هذه الممالك ومثلها الانسكلويديا الاميركانية فقلت دعني انظر في تفسير الكتاب للعلامة بوتلر وهو من احدث كتب التفاسير ومن اشهرها فنظرت فلم اجد فيه ما يشفي فانقلبت الى معاجم الكتاب فراجعت احدثها عهداً واشهرها فلم أر فيها ما يزيد عما في غيرها مما اطلعت عليه . الا ان العلامة هيستن في معجمه الشهير المطبوع سنة ١٨٩٨ - ١٩٠٢ اشار الى رأي العلامة كونيور فقال في آخر ما ذكره عن لفظ حصور نقلا عن العلامة الموميا اليه انها مكان غير معروف في بلاد العرب يذكر مع قيدار وان نبوخذنصر حارب اهله . والاشارة في غاية الاختصار لا تزيد عن السطرين وقد ذكرت معناها على ما بقي في ذهني لا ترجمتها الحرفية فمن شاء فليراجع معجم هذا العلامة في باب حصور

كان في ذهني من قبل ان بلاد اليمن من جملة البلدان التي حاربها نبوخذ نصر فحدثت ان ممالك حصور هذه هي بلاد اليمن او قسم منها لان اشارة ارميا النبي - اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حصور الخ - لا تنطبق على حصور مدينة يابن بقرب بحيرة الحولة فانقلبت الى كتب التاريخ العربية ابحت عما يقوم دليلاً على صحة ما حدثته فراجعت العلامة ابن خلدون والمسعودي فرأيتهما في حروب نبوخذ نصر في بلاد العرب يقرنان ذكر بني حضورا بالعرب العدنانيين كما يقرن ارميا النبي بممالك حصور بالقيداريين والمستتج من ذلك لا يكاد يشك به على ما ارى اي ان بني حضورا وممالك حصور هما اسمان لمسمى واحد كما ان قيدار والعرب العدنانيين اسمان ايضاً والمسمى واحد ولاسيما اذا

أعتبرت المشابهة اللفظية الواضحة بين حصور و حضور. فبقى عليّ تحقيق موقع حضور او حضوراً في اي نقطة هو من البلاد العربية

فقلت اراجع الهمذاني صاحب وصف جزيرة العرب فلعله يذكر شيئاً عن ذلك فراجعته فاذا به يذكر ما احب ان يذكره. واليك القول الآتية عن كل من هؤلاء الأئمة الاعلام

عن العلامة ابن خلدون

قال هذا العلامة في الجزء الثاني من تاريخه المشهور طبعة بولاق صفحة ١٦٠ وبمختصر هذا الذي غزا العرب وقتلهم واستباحهم. قال هشام بن محمد اوحى الله الى ارميا النبي يأمر بمختصر ان يفرق العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم ويستبيحهم بالقتل. قال فوثب بمختصر على من وجده ببلاده من العرب للميرة فحبسهم ونادى بالغزو وجاءت منهم طوائف مستسلمين فقبلهم وانزلهم بالانبار والحيرة. وقال غير هشام ان بمختصر غزا العرب بالجزيرة وما بين ايلة والابلة وملاها عليهم خيلاً ورجالاً ولقيه بنو عدنان فهزمهم الى حضورا واستلحهم اجمعين. وقال وجه ٢٣٧ من الجزء المذكور. يقال في مبدل كونهم هناك ان بمختصر لما سلطه الله على العرب — قتل اهل الوبر بناحية عدن اليمن بينهم شعيب بن ذي مهديم — فاوحى الله الى ارميا بن حزقيا وبرخيا ان يسيرا بمختصر الى العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم وان يقتل ولا يستحي ويستلحهم اجمعين ولا يبقى منهم اثر — وسار الى العرب وقد نظم ما بين ايلة والابلة خيلاً ورجلاً وتسامع العرب باقطار جزيرتهم واجتمعوا للقائه فهزم عدنان اولاً ثم استلحهم الباقين ورجع الى بابل وجمع السبايا فانزلهم بالانبار ثم خالطهم بعد ذلك النبطه وقال ايضاً وجه ٢٣٩ من الجزء المنار ذكره. وغزا بمختصر العرب واستلحهم وهلك عدنان وبقيت بلاد العرب خراباً. قال السهيلي وكان رجوع معدة الى الحجاز بعد ما دفع الله بأسه عن العرب ورجعت بقاياهم التي كانت بالشواحق الى مجالاتهم بعد ان دوخ بمختصر بلادهم وخرب معمرهم واستأصل حضوراً وأهل الرمن التي كانت سطوة الله بالعرب من اجابهم وقال وجه ٢٤٣ من الجزء المذكور. ومن كعب بن زيد الجمهور ويلقب كعب الظلم ابناً سبأ الاصغر بن كعب واليه ينتهي نسب ملوكهم التباينة ومن زيد الجمهور بنو حضور ابن عدي بن مالك بن زيد وقد مر ذكرهم وتقول اليمن ان منهم كان شعيب بن ذي مهديم النبي الذي قتله قومه ففزاهم بمختصر فقتلهم. وقيل هو حضور بن قحطان الذي اسمه في التوراة يقطان ومنهم ايضاً بنو ميثم وبنو إحالة ابني سعد بن عوف بن عدي بن مالك اخي ذي رعين. وعوف هذا اخو حضور واخوه أحاطة وميثم بنو حراز بن سعد

عن العلامة المسعودي

وقال العلامة المسعودي في كتابه مروج الذهب الجزء الاول وجه ٢٢٦ وكانت (اي بنو حضورا) امة عظيمة ذات بطش وشدة فلبت على كثير من الارض والممالك وقد تنازع الناس فيهم فمنهم من الحقهم بمن ذكرنا من العرب البائدة ممن سمينا ومنهم من رأى انهم من ولد يافث بن نوح وقيل في انسابهم غير ما ذكر من الوجوه . وقد كان بعث الله عز وجل اليهم شعيب بن ذي مهديم بن حضورا نبياً ناهياً عما كانوا عليه وهذا غير شعيب بن نوفل ولما بعث الى حضورا واشتد كفرهم جدّ نبينهم شعيب بن ذي مهديم في دعائهم وخوفهم وتوعدهم فقتلوه فإوحى الله الى نبي كان في عصره وهو برخيا وكان من سبط يهوذا — ان يأتي مختصراً وكان بالشام — فيأمره ان يغزو العرب الذين لا اغلاق لبيوتهم فلما أتى برخيا ذلك الملك قال له الملك صدقت لي سبع ليالٍ أمر في نومي بما ذكرت وانادي بمجيئك الي وأبشّر ويقال لي ما أمرتني به وانا انتصر للنبي المقتول المظلوم . فسار اليهم في جنوده وغشي ديارهم في عساكره وصاح بهم صاح من السماء وقد استعدوا لحربه من حيث عم الصوت جميعهم . فلما سمعوا ذلك علموا ان الامر قد نزل بهم فانفضت جنودهم وتفرقت جموعهم وولت كتابهم واخذهم السيف فحصدوا اجمعين

عن العلامة الهمداني

جاء لهذا العلامة في كتابه وصف جزيرة العرب طبع ليدن سنة ١٨٨٤ وجه

١٠٦ ما نصه قال

مخلاف حضور وهو حضور بن عدي بن مالك من ولده شعيب النبي بن مهديم بن ذي مهديم بن المقدم بن حضور عليه السلام وهو الذي قتله قومه ويقال قتله اهل حضوري وعربايا وكان بُعث اليهم . فسافلة حضوريناغ وشمّ وماضخ وصالح والانيوم وبريش ومنهم بحزا وعلسان فهذه سافلة حضور . وبحضور الصيد وهم يتهمدون ويقال انهم من حمير وهم غير صيد همدان . وعالية حضور واضع والمعلل وحقل سهان . انتهى

ترى مما ذكره الهمداني صراحة ان هذا المخلاف هو في منتصف بلاد اليمن على مقربة من صنعاء وانه نسب الى حضور بن عدي بن مالك وابن خلدون يصرح ان حضور هو من نسل زيد الجمهور الذي ينتهي اليه نسب التبابعة وعليه فبنو حضورا كانوا التبابعة في ايام نبوخذ نصر وكان لهم ملك اليمن وتهامة معاً . وهذا مما تناسبه عبارة المسعودي -- اي

انهم كانوا امة ذات بطش وشدة وقد غلبت على كثير من الممالك
ثم اذا صدقنا قول اهل اليمن عن اتسهم في تواريخهم او تقاليدهم علمنا ان شعيب بن
ذي مهديم كان من امراء آل حضور فان هذه الاضافة — اي ذي مهديم — تشعر بذلك
ولها نظائر عندهم كذي الكلاع وذي يزن وذي شحر الخ فانها كلها اسماء امكنة اضيف
اليها كما صرح المسعودي بذلك . وشبهه بها عبارة مؤرخي المنولدين في قولهم مثلاً صاحب
صور وصاحب طرابلس وصاحب الشوبك وصاحب سيجر وامثال ذلك كثيرة ولعلمهم اتبعوا
اصطلاح من سبقهم انما ابدلوا ذي بمنها اعني صاحب . وعليه فهديم اسم البلد التي كان
ابوه اميراً عليها . والمهدم ولا شك يراد بها مدينة المهجم الحالية وهي من امهات مدن
تهامة اما المشابهة اللغوية فواضحة فان الجيم والدا ل يقرب لفظ احدهما من الآخر بل
كثيرون لا يلفظون الجيم الا دالا فاذا قلت لهم قولوا مهجم قالوا مهديم . واما المشابهة في الصفة
فان خلدون يقول كما نقلنا عنه ان اهل الوبر في ناحية عدن اليمن قتلوا نبيهم شعيب ابن
ذي مهديم واهل تهامة كانوا ولا يزالون لحد هذه الساعة اهل وبر والمهجم من امهات مدنهم
وربما كانت ايضاً عاصمتهم في ذلك الحين فالوصف الذي ذكره ابن خلدون منطبق عليها
دعنا الآن نذكر محصل ما جاء عن نبوخذ نصر في سفري ارميا وحزقيال وسفر الملوك
الثاني اما النبيان فكانا معاصرين لنبوخذ نصر واما صاحب سفر الملوك فكان يمدد بقليل
وربما عاصره مدة على الراجح . ثم محصل ما جاء عنه في تواريخ العرب وتقاليدهم على ما
رأيت في النقول التي نقلنا وبمد ذلك ننظر في مقابلة المحصلين احدهما بصاحبه فان في الواحد
ما يفسر بعض ما في الآخر من الابهام كما ستري : —

في اواخر ملك يوشيا ملك يهوذا صعد فرعون نخو بجيوشه بقصد كركيش على الفرات
شمالى حلب فاعترضه يوشيا ملك يهوذا في بقعة مجدو فاصابه الرماة يسهم فخرج جرحاً مميتاً
ونقله عبده من المركبة التي كان يجارب فيها متكرراً الى مركبته الثانية ورجعوا به الى
اورشليم فأت هناك ودفن في قبور آبائه وملك اليهود ابنه يهوآحاز بدلا منه . الا ان فرعون
نخو عاد من كركيش بعد ثلاثة اشهر ومر باورشليم فعزل يهوآحاز واخذ اسيراً الى مصر
ونصب مكانه اخاه الياقيم بعد ان ضمن له ما غرم به الارض من وزنات الفضة والذهب
وسماه يهوياقيم

وبعد اربع سنوات من موت يوشيا كانت موقعة كركيش التقت فيها جيوش نبوخذ نصر
بجيوش المصريين فكانت حرباً هائلة دارت فيها الدائرة على جيوش نخو وقاز البابليون على
المصريين فوزاً كبيراً فارتد هؤلاء الى بلادهم مهزومين وتبعهم نبوخذ نصر حتى جاء الى اورشليم

فلم يكن من يهوياقيم ادنى مقاومة فقيده نبوخذنصر ليذهب به الى بابل الا انه عاد فاستبقاه عاملا له وما زال يهوياقيم عبداً لنبوخذنصر ثلاث سنوات ثم عصى عليه وعاد الى موالة المصريين الى ان مات في السنة الحادية عشرة من ملكه وملك ابنه يهوياكين بدلا منه وفي اواخر ملك يهوياقيم جاءت جيوش البابليين الى اليهودية وبعد ثلاثة اشهر من ملك يهوياكين شدد نبوخذنصر الحصار على اورشليم فلم يمد يهوياكين يقوى على المدافعة فاستسلم هو واهله وعبيده ورؤساؤه وخصيائه لنبوخذنصر فاخذهم الى بابل وسبي معهم سبعة آلاف من اقوياء الارض واصحاب الياأس فيها فضلا عن الابطال اهل الحرب وفضلا عن الصناع من التجارين والحادين

ولم يذكر في سفر ارميا ولا في سفر حزقيال ولا في سفر الملوك ما انسبب في عصيان يهوياقيم على ملك بابل بعد ان استعبد له ثلاث سنوات . على ان ارميا النبي يشير الى اسم القبائل العربية ددان ونيماء وبوز وكل ملوك العرب وكل ملوك الليف الساكنين في البرية وكل ملوك زمري وان هذه الامم كلها كانت عند موقعة كركيش او بعدها بقليل حرباً لنبوخذنصر ومن جملتهم قيدار وممالك حاصور وان نبوخذنصر كان يعد لحرب هؤلاء عن آخرهم . وهذه عبارته في شأن ممالك حاصور قال « اهربوا انهزموا جداً تعمقوا في السكن يا سكان حاصور يقول الرب لان نبوخذنصر ملك بابل قد اشار عليكم مشورة وفكر عليكم فكراً »

وجاء في سفر الملوك انه لما عصى يهوياقيم على نبوخذنصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين ارسل الرب عليه غزاة الكلدانيين وغزاة الاراميين والعمونيين والموابيين ولم يذكر نبوخذنصر ولا جيوشه حينئذ وانما ذكره في ابتداء ملك يهوياكين فلماذا لم يأت نبوخذنصر او على الاقل لماذا لم يرسل جيوشه لحرب من عصى عليه بعد ان وافقه على الطاعة ولماذا اخر غزوه والاقتصاص منه اربع سنوات تقريباً . ثم لما تحرك نبوخذنصر وسار بجيوشه على اورشليم يقول صاحب سفر الملوك هذه العبارة يعترض بها اعتراضاً — « ولم يمد ملك مصر يخرج من ارضه لان ملك بابل اخذ من نهر مصر الى نهر الفرات كل ما كان ملك مصر » كل هذا مما يحتاج الى تفسير ولا يفسره الا حروب ملك بابل في حاصور على ما ارى فلتتقدم اذن لذكر محصل ما يفهم من النقول التي نقلناها آنفاً عن ابن خلدون والسعودي والهمداني يتحصل منها ان بني حضورا وهم ممالك حاصور كانوا ملوك اليمن في ذلك الحين وان عاصمتهم كانت صنعاء او مدينة اخرى بقرب صنعاء ولعلها مدينة حاز في مخالاف حضور فان الهمداني يذكر انها مدينة قديمة وفيها آثار جاهلية وكانت تهامة تابعة لهم . ويتحصل ايضاً ان

شعيب نبي بني حضورا وابن صاحب المهجم كان من اشياخ نبوخذنصر وحكمه في قومه حكيم
ارميا في اليهود فلما قتله قومه من اهل الوير في تهامة استنجد اهله او حزيه بمختصر وكان
حينئذ في اليهودية وجهاتها يفكر في غزو العرب وبلاد اليمن ليلتحقها باملاكه كما فعل من
سبقه من ملوك اشور وقوادها العظام فسار اليهم ليثأر منهم بدم النبي المقتول. وكان مسيره
بعد ان مر باورشليم في الرابعة من ملك يهوياقيم . وهنا نقول انه لاقى من الصعوبات في
غزو هذه البلاد اشد مما لقيه الرومان في اوائل التاريخ المسيحي في ايام اوكتافيوس قيصر
ذلك لان هؤلاء لم يحتاجوا الى قطع الصحراء الشمالية لانهم ساروا بالسفن من مصر حتى
بلغوا الحوراء فنزلوا عليها ومن هناك دخلوا تهامة واليمن واما هو فاضطر الى قطع الصحراء
ومحاربة المدنانيين او قيصار اولا وبعد ان استلحهم استمر على غزواته خلفهم الى تهامة
وحضورا . وعليه فقد لاقى من المشقات اضعاف ما لاقاه الرومان ولا سيما ان المصريين كانوا
عليه لا معه ومن اشد خصومه ايضا ولا يبعد انهم انجدوا اهل حضورا وامدوهم بالمال
والرجال . ولا يبعد ايضا بل هو مما يجوز لنا ترجيحه ان قد توجهت عليه غلبة او غلبات
اجبانا فاشيع خبر انقلابه في سوريا وفلسطين اشاع ذلك خصومه المصريون فارتد بذلك
كثيرون من الشعوب عن طاعته ومن جملتهم اليهود . وهذا مما يفسر لنا سبب عصيان
يهوياقيم على بمختصر بعد ان استعبد له ثلاث سنين على ضعف سياسته وتفرق قلوب اهل
مملكته عنه . ويفسر لنا ايضا ما جاء به صاحب سفر الملوك من انه لما عاد يهوياقيم فتمرد على
بمختصر ارسل عليه الرب غزاة الكلدانيين والاراميين ولم يقل جيش الكلدانيين ولا
بمختصر ملكهم لانه لم يكن حينئذ يستطيع ان يحضر بنفسه ولا ان يرسل اليهم جانبا كبيرا
من جنوده لانه كان منهمكاً بحروبه في اليمن وتهامة وكانت الحرب شديدة لا تؤذن له ان
يوجه جيشاً كبيراً منظماً ليقص من اليهود فارسل من ثم شرادم غزاة فالتف عليهم قوم
من الاراميين والموايين والعمونيين اعداء اليهود وكان من هم هؤلاء الغزاة مضايقة اليهود
واعنائهم بالغزو على اطراف بلادهم وقطع السابلة على تجارهم وقوافلهم الى ان يكون فرغ
بمختصر من حرب العرب . ومما يستوجب الفكرة ان لم يكن بين هؤلاء الغزاة على يهوياقيم
احد من الادوميين ولعل ضلهم كان مع اليمنيين على بمختصر كما كان ضلع من خلفهم من
الانباط مع اهل اليمن على الرومانيين

وقد استمرت هذه الحرب على ما يظهر نحواً من ثلاث سنين خرج منها بمختصر مظفراً
غالباً ودانت له عند نهايتها البلاد كلها من نهر مصر الى نهر القرات وفرغ حينئذ لحرب
اليهود فلم يلبث ان استسلم اليه يهوياكين ملكهم بعد ثلاثة اشهر من الحصار كما ذكرنا

هذا ما خطر لي في التحقيق عن ممالك حاصور ولا اشك ان من يقابل كما قابلت ويراجع ما راجعته يتبين له كما تبين لي وخلاصته ان قidar هم العرب العدنانيون وأن ممالك حاصور هم بنو حضورا تبابعة اليمن في ذلك الحين وان حروب بختنصر معهم استمرت نحواً من اربع سنوات من السنة السابعة ليهويقيم الى السنة الحادية عشرة من ملكه وهي السنة التي مات فيها . ويظهر له ايضاً ان التبابعة بني حضورا كانوا منقسمين الى حزبين حزب مع المصريين وآخر وهو حزب شعيب بن ذي مهدي مع البابليين وان هذا الانقسام والتحزب لنبوخذنصر هو الذي مكن هذا الملك البابلي من اجتياح بلادهم وايقاعه بهم حتى كاد يفنيهم مما لم يسبق لملك قبله ولم يأت مثله لمن بعده . وقد بقي خبر هذه الغزوة لشدها محفوظاً في تقاليد اليمن لحد هذه الساعة دون غيرها من غزوات المصريين والاشوريين والرومانيين . وما يؤيد صحة هذه الغزوة على ما ذكرنا ايضاً وجود الانباط وهم سكان بابل في حقل جهران وحقل قناب في قلب اليمن قال الشاعر على لسان احد انبابعة

فسكنت العراق خيار قومي وسكنت النبط قري قناب

انظر الهمداني وصف جزيرة العرب وجه ١٠٤ . وفوق كل ذي علم عليم



الاحتفال بالدستور

لقد كان لاعلان الدستور في البلاد العثمانية اعظم وقع في نفوس العثمانيين فعمدوا له حفلات باهرة في بلادهم وفي كل البلدان التي هاجروا اليها تلي فيها من الخطب والقصائد ما لو جمع لملأ مجلدات كثيرة . وقد اخترنا من ذلك خطبة وقصيدة رأيناها من أدل ما انشيء في وصف الحالة الحاضرة . والخطبة وموضوعها «نحن والدستور» لحضرة الاستاذ جبر ضومط من أساتذة المدرسة الكلية الاميركية في بيروت

نحن والدستور

كنا منذ بضعة اسابيع بل منذ اقل من ذلك يتاجي احدنا نفسه ولا اقول اصدقاءه بسوء ما صرنا اليه ويخاف على نفسه مغبة تلك المناجاة . يخاف ان يبدو على وجهه شيء من امارات ما يجول في خاطره فيؤخذ بقية ذلك الخاطر ويساق الى السجن او المنفى . وان كان ممن يؤبه له فربما سيق الى القتل او الكورك ومن يجسر ان يدفع او يقول رفقاً . وربما كان عقاب الشافع او طالب الرفق اشد من عقاب المتهم

منذ بضعة اسابيع كان كثيرون من اعيان العثمانيين واشدهم محبة واخلاقاً في رفع شأن العثمانية يخاف ان تقات من صدره زفرة او يباغته تهدي فينقل عنه خبر تلك الزفرة او ذلك التهدي جاسوس عليه من المتظاهرين يصدقه او يمن هم في خدمته بل ربما نقل عنه الخبر احد بنيه او امرائه وهناك الظامة الكبرى والبليّة العظمى

منذ بضعة اسابيع ايها السادة كان تألم المتألم مناسراً على ما وصات اليه العثمانية وعلى ما صار اليه العثمانيون ذنباً من اكبر الذنوب وكان احدنا يخاف ان بعض اهل الشر والنذالة يدس في بيته او بين كتبه كتاباً او يعض وريقات بصورة كتاب الى احدهم او مقالة لجريفة فكان ذلك يكفي لان يحسب من اكبر المجرمين والخنونة المارقين ولو كان صدره يغلي بحب العثمانية والعمانيين

وخلاصة ما يقال انا كنا منذ بضعة اسابيع والظلمة تفشاننا والخاوف تهدد كل عثماني حر منا تزيه في نفسه صادق في عثمانيته مخلص لامته . واريد بالاخلاص الاخلاص الحقيقي المبني على العلم والحكمة والامانة لا هذا الاخلاص المدعى زوراً المتافق فيه هتافاً الذي كان كثيرون يضعونه على وجوههم السمجة والسقم الكاذبة

كنا منذ بضعة اسابيع والصدور ضائقة بما فيها والنفوس واجمة من هول ما ترى من موقفها والعقلاء النزهاء لا يدرون ماذا يصنعون ولا ماذا يقولون وكأنما اطبقت عليهم السماء وسدت عليهم منها منافذ الرحمة اوضفت عليهم الارض حتى رضتهم رضاً فالصقتهم بالتراب اودفعتهم اى محارم الجبال وبطون الغيران وظلمات الكهوف وقد حصرت صدورهم وساءت او كادت ظنونهم تسيء بالعناية الالهية . بينما نحن في هذه الظلمة المدهمة وفي حال من اليأس والقنوط ما شهدنا منها ولا آباؤنا الاولون سطع علينا بغتة نور القانون الاساسي فاشرقت على آثاره شمس الحرية الشخصية والحرية القومية والحرية الفكرية الادبية

ما بين غفلة عين وانبهاتها يغير الله من حال الى حال

واذا عظمت النعمة فليس بازائها الا الشكر . فالشكر لله ثم الشكر له . وبعد الشكر لله لا يسعنا الاغضاء عما فعله امراء جنديتنا العثمانية البواسل نيازي وانور والوف امثالهم وكلهم في الشرف والهمة والاستبسال في سبيل العثمانية نيازي وانور
وبعد فموضوعي مؤلف من كلمتين الاولى منها « نحن » والثانية « الدستور » ولا بد لي من تحديد ما يراد بهاتين اللفظتين وابدأ بلفظة الدستور اولاً واعني كل دستور عموماً ودستورنا العثماني خصوصاً

ما هو الدستور ؟ هو القوانين المسنونة وفقاً للاختبار والحكمة ليعامل بموجبها افراد الامة اسعاداً لهم من حيث هم افراد واسعاداً وتعزيزاً لهم من حيث هم امة اي مجموع افراد وللأفراد كل الحق والحرية ان يتقاضوا المعاملة بموجب نص تلك القوانين صراحة او ضمناً وللامة ايضاً ملء الحق والحرية ان تحتاط لحفظ هذه القوانين وصيانة حرمتها ممن يتخوف منه الاعتداء عليها او اهمال العمل بها

هذا تحديد شبيه بتحديد المناطقة ولكني لا اضمن انه جامع مانع كما اني لا اضمن ان يكون موافقاً تمام الموافقة لتحديد فلاسفة السمران او المشرعين ولكني اقول انه محدد فيه من الصحة القدر الذي اريده لبيان اهمية كل دستور وعظم قيمته الحقيقية على انه يجوز تعدد التعاريف اذا كان المرء متسماً كما هي الحال في الدستور لانه يجوز ان يكون الحد او التعريف صفة من صفاته او غاية من غاياته كما يجوز ان يكون بياناً لسلفية حصوله والعوامل التي اُثرت في كيانه تدريجياً وما انفق في سبيل ذلك من القوى المعنوية والمادية حتى بلغ ما بلغ اليه

الدستور ايها السادة هو نتيجة محاربات الخير والشر اجيالاً الله يعلم كم هي عدته وبعبارة اخرى هو مجموع ما استفادته الانسانية من غايات الخير على الشر في اثناء العراك

المائل الذي قام بينهما من اول عهد الانسان الى الآن هو نتيجة غلبات العدل على الجور والعقل على الحيوانية والعلم على الجهل في اثناء مئات من الاجيال هو ثمرة عقل كل عاقل في المجتمع الانساني وحكمة كل حكيم واستقامة كل مستقيم وصبر جميع هؤلاء على المجاهدة المستمرة مدى الحياة اثناء الاجيال التي عبرت . هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل سيف استل في نصرة العدل والحق والاستقامة . منذ قام عادل وعارف بالحق ومستقيم بين افراد الانسانية لحد هذه الساعة

الدستور العادل المرعي الاجراء عند كل أمة متقدمة هو الغاية ومجموع النتائج التي حصلت من كل لسان تكلم بالحق انتصاراً للعدل واذلالاً للجور كما انه غاية ومجموع نتائج كل ما خطه يراع حكيم عالم وكانب فاضل انتصاراً للانسانية على الحيوانية وتعلم على الجهل وللحكمة على السفاهة ولكل ما هو شريف وعادل على ما هو خسيس وجائر

بل الدستور العادل المرعي الاجراء هو عند التحقيق مظهر لارادة الله في المجتمع العمراني واثراً مما علم به وجاهد له الانبياء والمرسلون ومن اقتفى خطواتهم واهتدى بهديهم من العلماء الراسخين والاولياء الصالحين والوعاظ اهل الفيرة المتقين

ايها السادة هذا هو الدستور العادل على الاطلاق ودستورنا العثماني دستور خاص يشتمل على كل ما يشتمل عليه دستور عام ويتناول كل ما قلناه عن الدستور العادل من الصفات والمقومات وزيادة ايضاً شأن كل خاص فإنه يشتمل على العام وزيادة . هذه الزيادة هي تعريض نفوس نحو من اربعمئة الف رجل من رجالنا العثمانيين للموت في حرب اهلية طاحنة . ولولا حكمة امراء هذا الجيش ومن نصرهم من خيرة اعيان العثمانيين بالرأي والمال . ولولا اقتناع جلالة مولانا السلطان بان ما عرض من الطلب علي جلالاته بواسطة جنديتنا الباسلة انما هو صوت الامة - لولا ذلك كله لكانت الدماء الان تسيل انهاراً والاموال تنفق جزافاً في سبيل الحصول على هذا الدستور

فهذا هو دستورنا العثماني الذي احرزته لنا سيوف اجنادنا العثمانيين بمعاودة احرارنا المتحدين من امراء ووزراء وقادة جند باسل وعلماء اعلام وفقهاء عظام واهل حل وعقد من اعيان الامة ووجهاتها في سائر انحاء المملكة فانهم كلهم رضوا به وحلفوا الايمان الرهيبة على مراعاته والاحتفاظ به كما يحتفظون باموالهم واعراضهم وانفسهم وكلهم امضى على وجوب الطاعة له والعمل به فاصبح من ثم مجد الامة وقوتها وملاك كل فرد من افرادها يتمتعون ببركاته في حياتهم ويورثونه لمن يخلفهم من ابنائهم بعد مماتهم . فليحي هذا الدستور مجد الامة وحياتها وعزها وليحي القائمون بنصرته والعاملون به

ترون ايها السادة مما ذكرته في بيان حقيقة الدستور اني لا ارى ان افراحنه هي صيانيات تافهة ولا احتفالاتنا ومظاهراتنا الخارجية تكريمة له ولحماته تهوسات ضارة بل هي مهما بلغت مع القصد والحكمة قليلة في جذب اهميته ومقدار قيمته . واي قيمة اعظم من قيمة الحياة حياة الفكر والقول والعمل المشروع للفرد وحياة العزة والقوة والتوازر والاستقلال والاستبسال للامة . فمن اراد الحياة فليقل ليحي الدستور العثماني والقائمون به ومن اراد الموت موت الذل والصغار والاستعباد فلا رحمه الله وليت هذا الشخص من بين جماعة العثمانيين الحرة

ايها الكرام فرغت الآن من الكلام على الدستور وهو احد كلمتي موضوعي وبقي عليّ الكلام على الكلمة الثانية منه وهي كلمة « نحن » فارجو ان تعيروني إصفاكم في بيان المراد منها وما اليه فان هذا البيان الثاني لا يقل في الاهمية عن البيان الاول ان لم يكن اهم منه قلت ما محصله ان دستورنا العثماني هو مجسم ارادة الامة العثمانية العادلة الخيرة وهو ملك افرادها اليوم وميراث ابنائها غداً . وقد نفتنا الارادة بالعدالة الخيرة والافلاستبداد ارادة وحكومة الظلم والجور والبغي ارادة ايضاً . وارادة الامة العثمانية (وكل امة) هي ارادة مجموع افرادها او من ينوب منهم من المتبوعين واهل الجاه الذين يقولون عن اتباعهم ويقطعون من دون استشارتهم ومراجعتهم

لكن ربما يستتج من قوانا ان الدستور هو مجسم ارادة الامة ان قيامه او سقوطه متوقفان على ارادة الامة فاذا ارادت اقامته قام اي روعيت احكامه وعمل بها واذا ارادت اسقاطه سقط اي اهملت احكامه وعمل باحكام منافية لها . وظاهر هذا الاستنتاج صحيح ولكنه ظاهر محموم مشوب بكدورة من النظر الفاسد . والحقيقة هي ان قيام الدستوراي مراعاة احكامه والعمل بها دليل على ان في الامة ارادة خيرة عادلة غالبية والدستور هو مجسم تلك الارادة . واما اذا سقط فلا يكون سقوطه دليلاً على ان الامة ارادت اسقاطه بل هو دليل على ان الامة ميتة لا إرادة لها كأمة لا كافراد . وبعبارة اخرى لما كانت الامة هي مجموع الافراد كان لنا ان نقول ان قيام الدستور واستمراره مرعياً دليل على ان هذا المجموع حي يريد ارادة خيرة عادلة اما سقوطه اي اهمال العمل به فدليل على ان هذا المجموع (لا الجميع) ميت جيناً او جهالة كمجموع لا كافراد اذ لا تخلو الامة من افراد لهم ارادة خيرة تعضد الدستور العادل ولكنهم كثيراً ما يكونون مضعوفين مغلوبين على ارادتهم كما كان الحال عليه بيننا منذ بضع سنين بل منذ بضعة اشهر

ولنرجع الآن بعد هذا الاستطراد الى بيان المراد بكلمة « نحن » فمن نحن ؟ يجوز

لي ان اعم في الجواب وان اخصص فان عمت قلت نحن من العثمانيين الذين لهم ارادة وارادتهم جزء من ارادة الامة العثمانية . وان خصصت قلت نحن جماعة اكثرهم من اللبنانيين قاموا باحياء هذه اللبلة الزاهرة لتحية الدستور والاقرار بائنة علينا لمانه من امراء جنديتنا البواسل . ومعظم هذه الاكثية من قضاء الشوف وهم من اعيانه واهل الوجاهة فيهم ممن يجوز ان تمثل ارادتهم ارادة الاهلين كلهم او اكثرهم . لكن يا ترى اذا مثلت ارادة هؤلاء السراة الحاضرين الآن ارادة اكثر اهل قضاء الشوف فهل تمثل ارادة اللبنانيين كلهم . وهب انها مثلت ارادة كل اللبنانيين فهل تنطبق ارادتهم على الدستور العثماني الذي هو مجسم ارادة مجموع الامة العثمانية العادلة المقدسة

جائز ان يكون الجواب من قبيل الجواز او من قبيل القطع بالحكم . اما انا فاقول ان ارادتهم ايها السراة العثمانيون التي تمثل ارادة اهل قضاء الشوف كلهم على الارجحية النهائية ولعلها ايضاً تمثل ارادة كل اهل لبنان لا تنطبق على ارادة الامة العادلة تمام الانطباق الواجب الامع الاخلاص . فان كنتم مخلصين في ارادتهم واتفاقكم المتبادل فارادتهم منطبقة على الدستور وهي جزء من ارادة الامة . اما اذا لم يكن اخلاص وكان هناك اهواء واغراض ذاتية خاصة فحسبكم ان مثل هذه الاغراض كانت فيما مضى سبباً لكل الويلات التي مرت بنا . الويلات التي لا نذكرها بل لا نذكر في خواطرننا الا وتقبض صدورنا اشد الاقباض من مجرد ذكرها بل من مجرد مرورها في البال . مرور المسرع فانا اتقدم اليكم بالشرف العثماني وبشرف جنديتنا الباسلة ان تراجعوا ضمائرهم وتفتنوا لحفايا النفس وتفتشوا مخاييها فلعل هناك هوى يلون للارادة حب الذات بلون محبة الامة والشرف ويصور لها الغرض الخاص بصورة الغرض العام والمصلحة الذاتية بصورة المصلحة القومية العمومية

ايها الوجهاء من كان منكم يحب الظهور وبعد الصيد — ولا عار ولا غضاظة على احد بسبب ذلك — فليراجع نفسه وشرفه العثماني قبل ان يجزم ارادته بما هو في سبيله من الوسائل التي تؤدي به الى غايته هذه فان هذه المحبة قد تنقاد للهوى والهوى في جانب الباطل دائماً وعلى عداء مع الدستور المقدس

ان المناصب في خدمة الامة على اختلاف انواعها وتفاوت درجات شرفها واهميتها جائزة لكل عثماني كفء لها ومباح له طلبها والسعي في احرازها بل والتنافس في ذلك ايضاً الا ان الشغف بالترجع في المناصب قد يباينه الاخلاص احياناً كثيرة ويداخله الهوى ولذلك ففيه ما فيه من الخطر الذي قد يسوق صاحبه الى الجري في خطة القوم السالفين

خطة التزلف الى من في يدهم الامر والنهي والعزل والتنصيب . فمن كان يرغب في المناصب فليحاسب نفسه وليتق مغبة التزلف الى من انقذوا الامة من الحالة التي كانت فيها قبلا الى الحالة المجيدة الشريفة التي هي عليها الآن . فما اوصلنا الى ما وصلنا اليه سابقاً الا اطماع واغراض وحب وجاهة وتفوق في غيره ووضعها او في غير الحق فحرت كل هذه او بعضها الى التزلف . والمتزلف قل ان يصور الامور الا في غير صورتها الحقيقية . فالاناة الاناة والاخلاص الاخلاص ايها العثمانيون والاشمت بنا الاعداء وكثير ما هم . أما والذي نفسي في يده اني لافضل ان تضرب عتقي على ان آتي ما فيه معرفة او غض من شرف عثمانيتنا الجديدة فانها تجلت للملا اجمع للصديق والعدو نقيّة من كل دنس ومن ثم فأقول هفوة منا نحن مرديها تظهر على بياضها النقي لطخة سوداء شائنة يتألم لها قاب المحب وتصغر نفسه ويظير لها فرحاً قاب العدو وتدفع نفسه الخبيثة للتشنيع والمذمة ويطل رأسه كبراً . ان كان اخنسه صغاراً وجيناً — ومع اني اشعر هذا الشعور وانا صادق فيه نظير كل واحد منكم — مع ذلك لا آمن من بدوات النفس واهوائها الخفية المنحرفة ان تفسد اخلاصي ان لم اكن على أشد الحذر منها والانتباه لها — اخاف هذا مع بعدي عن التدخل بما يسمونه سياسة او حزباً وانصراف نفسي عن الوظائف جملة بما انا راض به تمام الرضى من خدمة العلم والمتعلمين

على ان الاخلاص وهو من مقومات العثمانية وأهم اركان هذا البنيان الجديد الشريف الذي شرع فيه احرار العثمانيين لا يكفي وحده ان لم يصحبه العلم والخبرة فكم من هبة جهل وتسرع من اخلاص المخلصين افسدت رأياً كان فيه مجد العثمانية وقوتها وحياتها لم يكن يطمع في افساده اعدى اعدائها . والعلم نتيجة الفكرة والتروي والتدبر فلا بد لنا اذن من كل هذه قبل العمل . وربما الحق بنا المخلص المتسرع من الضرر في ساعة اضعاف ما يلحقه بنا انفاق في ساعات بل في اشهر

تلمعون ايها السادة ان يومنا الذي نحن فيه يوم تأسيس لا تزيبين وهو يوم له ما بعده فان كان الاساس من ثم راسخاً ثابتاً كلياً يبني عليه فيما بعد يكون شبيهاً به ويكون لنا ايضاً والا فانتم ادري مني بمصير بنيان تسرع في تأسيسه . وعليه فنحن اليوم احوج الى التروي والفكرة من كل الايام التي مرت بنا ومن كل الايام التي ستمر بنا بعد ان تستتب امورنا ويرسخ اساس عثمانيتنا الجديدة الحرة

فيا ايها الذين تسرعون في آرائكم ولا تفكرون في عواقب ما ترتأون ولا في مغبة اعمال لم توفق الى الرأي الصائب دعوا التسرع جانباً فان تسرعكم لا يفيدنا الان وان كنتم

اخلاص المخاصين واعي اهل الخبرة الحقة على شرف العثمانية ومصصلحة العثمانيين . إنا في حاجة الى المخاصين اصحاب العلم والخبرة الذين قبل ان يقولوا يفكرون ويتروون وبمد ان يقولوا يفعلون كما يقولون مثل هؤلاء تطمئن اليهم نفوسنا ونسلم اليهم قيادنا وتديرنا ولا اعني باصحاب العلم والخبرة الثنارين المكثرين من فضول الكلام كما اني لا اعني بهم من يستظهرون آداباً ويكتسبون اقوالاً ويحملون في ذاكرتهم اسفاراً او ينظمون وينثرون مدحاً وهجاء بل اعني باصحاب العلم الذين نحتاج اليهم اليوم اصحاب الرأي الاصيل والتدبير الحكم الذين يعرفون اهواء الامة ويعرفون امراضها ومواضع الخلل فيها ثم يعرفون كيف يصرفون تلك الاهواء على مقتضى العقل والحكمة وكيف يداوون تلك الامراض ويسدون ذلك الخلل ولا بد ان يكون واحدهم عارفاً ايضاً بمجمل احوال الامة العثمانية وما بينها وبين بقية الدول من المعاهدات والتجارات ويعرف ايضاً ما لتلك الدول من الخطط والتقليدات

هؤلاء هم الرجال الذين نريدهم في الوقت الحاضر وهم من المرادين بقولنا «نحن» في موضوعي «نحن والدستور» ثم لا بد ان يكون هؤلاء الرجال من مساعدين على شاكلتهم في الاخلاص والنزاهة والعلم والخبرة . واما الرجال الذين نريدهم مع الايام فلا مجال الآن لذكرهم وتعريفهم وما نطلبه من كل واحد منهم . وآخر ما اختم به مقالتي انا نريد بلفظة «نحن» العثمانيين المخاصين النزهاء اهل العلم والخبرة اهل الحكمة والتدبير الذين يقولون قليلاً ويفعلون كثيراً . نريد بلفظة «نحن» المخلصين من اهل النجدة والفتوة هؤلاء البواسل الذين يبذلون نفوسهم دون الامة ودون انفاذ مآل دستورها او قانونها الاساسي العادل ويجعلون سيوفهم رهناً لاشارة اهل العلم والرأي والحكمة والتدبير من غير لغط ولا قلقلة ولا دعوى . يمثل هؤلاء بحيا الدستور ويمظم شأن الامة فيدحوا وليحي الدستور الذي هو مجسم ارادة الامة ارادتها العادلة الخيرة وتلحي الامة وليحي ابناءؤها هؤلاء الاجناد البواسل وكل اصحاب الارادة الحرة والاخلاق الشريفة الفاضلة وليحي ايضاً رأس الامة العثمانية المجيدة الذي اصبح يرى وبحسب نفسه اباً وافراد امته اولاداً والسلام



البلدان العربية

واهمية اللغة العربية فيها

اعني بالبلدان العربية في المملكة العثمانية الولايات والمتصرفات التي يتكلم اهلها اللغة العربية فقط او يتكلمونها مع لغة أخرى ولكنها اي العربية هي اللغة المعول عليها في كتابات الالهيين ومخاطباتهم ومعاملاتهم على سبيل الاجمال ثم هي فوق ذلك لا تنازعنا فيها السلطة دولة أخرى اجنبية بسبب من الاسباب او لا يحق لها ذلك . فيخرج بالشرط الاخير كل البلدان العربية في القارة الافريقية (عدا طرابلس الغرب) وبعض البلاد في شبه جزيرة العرب ويبقى لنا الولايات والمتصرفات الآتي ذكرها

(١) ولاية بيروت وسوريا وبلحق بهما متصرفيتا لبنان والقدس

(٢) ولاية حلب

(٣) متصرفية الزور

(٤) ولاية الموصل وقسم كبير من ولاية ديار بكر

(٥) ولاية بغداد

(٦) ولاية البصرة وبلحق بها الكويت والاحساء

(٧) شمر والقصيم

(٨) الحجاز

(٩) عسير

(١٠) اليمن وتهامة

وهي بلاد كبيرة واسعة الاكتاف ويقال عنها اجمالا انها (ما عدا الحجاز) من اخصب بلدان الدنيا على اعتدال في هوائها وطباع اهلها فضلا عن انها كلها في وسط المعمور تقريبا وعلى طريق التجارة بين الشرق والغرب . وكانت قديماً ويمكن ان تكون في ما يأتي من الزمن بلاد الزراعة والصناعة والتجارة ومركزاً للعلم والادب ايضاً . اما عدد سكانها ففيها على سبيل التقريب اثنا عشر مليوناً من النفوس على التعديل المتوسط وربما بلغوا الخمسة عشر مليوناً او ما يقارب ذلك بحسب تعديل بعضهم . واكثر هذا العدد من الحضر سكان المدن والقرى وفيهم الاعراب سكان الخيام الذين يسرحون بالعامهم ومناشيتهم من مرعى الى آخر ولكن عددهم لا يتجاوز الثلاثة ملايين في الارجح وعلى اعلى تعديل ايضاً

أما ولايات سوريا وبيروت وحلب ودمشق والقديس ولبنان فمعرفة عند جمهور القراء. وأما الموصل وديار بكر ودمشق الزور فانها وان تكن من البلدان العربية الا انها متنجيات نوعاً عن أم البلدان العربية أعني جزيرة العرب وبتاخات الفرس والارمن والاكراد والأتراك ولاسيا ولاية ديار بكر وعليها بعض الصبغة من هذه الامم ولا يفهم من قولي هذا ان هذه البلدان تنزع في اميالها ومشاربها واغراضها وتقاليدها الى الأتراك او الأكراد او الارمن اكثر مما تنزع الى العرب ولا اظن ايضاً ان في الواقع شيئاً من هذا فان الذين يتكلمون لغة من اللغات تكون نزعاتهم في اميالهم ومشاربهم وتقاليدهم واغراضهم السياسية والاجتماعية الى جانب اهل لغتهم وان بعدوا عنهم اكثر مما هي الى جانب اهل لغة أخرى وان هم قربوا منهم في الجوار حتى وفي الجنسية البعيدة ايضاً على ان بعد هذه البلدان الثلاث وتحتها عن صميم البلاد العربية ووجود بعض الصبغة في سكانها ممن جاؤهم من الاجناس الأخرى كل ذلك ما كان ليمعني من التكلم عنها فيما لو كنت أستطيع ان افيد القراء فائدة تذكر ولهذا تركت القول هنا كما تركته في اهل الولايات الأولى

ولايتا بغداد والبصرة

وهما من أمهات الديار العربية قبل الاسلام وبعده اما قبل الاسلام فلأن الحلة كانت داراً لملوك الرب من ايام جذيمة الأبرش الى آخر من ملك من المناذرة. واما في الاسلام فاخضت البصرة والكوفة في ايام عمر بن الخطاب وما زالتا مدينتي العرب اجيالاً ولما قام المنصور العباسي اختط بغداد وبقيت داراً للخلافة الاسلامية العربية الى ان قدم هلاكها سنة ٦٥٦ هجرية وقتل الخليفة المستعصم بالله واستباح المدينة اربعين يوماً قيل فبلغ القتل اكثر من مليون نفس ولم يسلم الا من اختفى في بئر او قنطرة

اما عدد السكان في هاتين الولايتين فيبلغ على ما جاء في الاحصاءات الحديثة نحواً من مليونين وهو عدد كادت تبلغه مدينة بغداد وحدها في ابان عزها. والبلاد لا ينقصها خصب ولعلها من اخصب بلدان الدنيا ولاسيما بقعة مدينة بغداد وما حوالها فانها تصلح للزرع والضرع وقد جاء في الانسكلويديا البريطانية انها قد تغل اربعمئة ضعف. وربما يبلغ طول ساق النخلة في بتاتين بغداد والبصرة نحواً من ثمانين قدماً وطول سعوفها اثنتي عشرة قدماً ويقول زويمر صاحب كتاب مهد الاسلام ان احد كبار التجار الانكليز في البصرة يقدر غلة القمح سنوياً بنحو من مئة وخمسين الف طن او ستمئة الف قنطار شامي ولا يبعد ان هذه

الغلة قد تضاعفت من عشرين سنة الى الآن . والعارف بالبلاد وبنسبة بساتين التمر الموجودة الآن الى ما يمكن ان يكون منها لا يشك ان غلة التمر يمكن ان تضاعف الى عشرة امثال ما ذكره زويمر في خلال عشرين سنة من الآن اذا وجد الأمن المطلوب وأمن الفلاح الظلم والاعتات

وأهل البلاد خيرون بتربية النخل منذ القدم ولا يزالون الى اليوم وهو من المواد الاولية في معاشهم وليس في شجرته شيء الا وله منفعة واستعمال عندهم . والشائع على اللسان ان لشجرة النخل الف منفعة ومنفعة وبكفي من منافعه ان المرأة على ما يقولون تطعم اهل بيتها كل يوم لونهاً من التمر غير الذي اطعمتهم اياه بالامس على مدى ثلاثين يوماً والبلاد ايضاً كما هي بلاد نخيل هي كذلك بلاد حبوب وقطاني وبلاد صوف وقطن وصنع ورب السوس . ذكر زويمر ان معدل اثمان صادرات الصوف من ولايتي بغداد والبصرة بلغ سنة ١٨٩٧ نيفاً ونصف مليون من الجنيهات الانكليزية

ولقد كانت بغداد والبصرة من اكبر المراكز التجارية في العالم في ايام زهو العباسيين فانصبت اليهما تجارة الشرق كله برأ وبحراً فكانت القوافل تأتي بغداد من اقصى الشرق والشمال والمراكب تأتي البصرة من كل الفرض التجارية في افريقيا والهند وسيلان وبحر الصين . وفي هذه البقعة كانت أشهر المدن التجارية قديماً فبابل وسلوقية واكتريفون كانت في هذه البقعة وقد فاقت عليها كلها بغداد وكذلك كانت اور والاسار وأرك وكلثة وفاقت عليها كلها البصرة . وشوشن القصر وهي عاصمة الدولة الفارسية في ايام داريوس الكبير ومن خلفه هي في مركزها التجاري على حسنه دون مركز البصرة او بغداد الآن

بغداد اخصب بقعة في العراق . دجلة والفرات طريقان مائتان عظيمان ينصبان اليها من الشمال الاول رأساً والثاني بما يوصل من الترغ بينه وبين دجلة . ودجلة يوصالها بالبصرة اتصالاً لا ينقطع ثم البصرة توصالها بخليج فارس بخليج عمان فبافي البحار الكبيرة . فاي مركز اذن يفضل مركزها ليتأمل متأمل موقعها الجغرافي ثم ليحكم بنفسه لنفسه

قبل ان اترك هاتين الولايتين لا بد لي من ان اذكر ما ذكره زويمر في كتابه مهد الاسلام « انه في سنة ١٨٩٧ خرج من ميناء البصرة اربعمئة وواحد وعشرون مركباً شراعياً وخمس وتسعون باخرة محمولاها ١٣١٨٤٦ طناً ومن الخمس والتسعين باخرة احدى وتسعون « لبريطانيا العظمى » . ولا يجهد عماني عرف بغداد من موظف وتاجر ما لفتصالاتو برطانيا من الاهمية في بغداد . الاهمية التجارية والسياسية . وكلنا لم ننس بعد الازمة السياسية في وزارتنا العثمانية التي احدثتها شركة لنش الانكليزية هناك في بدء السنة الرومية الحالية

تابع ولاية البصرة

قلنا ان الكويت والاحساء تابعتان لولاية البصرة ونقول ان المرحوم مدحت باشا قدم اليه ايام كان والياً هناك عبد الله بن سعود يستنصره على اخيه سعود واجات سياسته حينئذ عن ان ألحق الكويت والاحساء بولاية البصرة وشكل منهما متصرفية سميت بمتصرفية نجد. اما الكويت فعلى ان يكون عبد الله المذكور قائماً بما نياها كل ايامه تحت حماية العثمانيين فدخلت الكويت والاحساء تحت حمايتنا بن نحو ثلاثين سنة ولم ينازع منازع في ذلك وتشكلت متصرفية الاحساء كما المننا ولا تزال الى الآن يعين لها المتصرفون من قبانا ومعهم من الجند والضابطة ما تقتضيه الحاجة السياسية والمدنية . ولا شك ان الجزيرة المعروفة بالبحرين كان ينبغي ان تكون تابعة للمتصرفية ولكن الاهمال من جهة وبعد الشقه من جهة اخرى والجهل باهمية موقع الكويت وموقع الجزيرة معاً كل ذلك جعل المتصرفين يعضون النظر عن الكويت والجزيرة ويتركون لرؤساء القبائل فيهما ان يتصرفوا بالبلاد والعباد كما يشاؤون كما هم مستقلون في المكاين المذكورين

موقع الكويت والاحساء

الى الجنوب بميلة الى الغرب من مصب الفرات ودجلة في خليج المعجم على جون كبير واسع يضرب في رمال جزيرة العرب على بقعة من صميم تلك الجزيرة هناك مدينة الكويت الحالية وهي مدينة نظيفة بالنسبة الى البصرة او غيرها . ويبلغ عدد سكانها اثني عشر الفاً او يزيد ومينائها واسع امين من احسن مرافئ شرقي جزيرة العرب بل احسنها. ويقال انها ستنتهي فيها السكة الحديدية البغدادية فاذا تم لها ذلك اصبحت محطة من اكبر واقرب محطات الهند والشرق الاقصى

والكويت في فلاة قاحلة ائس لها ما تعتمد عليه الا التجارة . وتجارتها متسعة مع شمر ونجد والحجاز ومنها ترسل الخيول الى البنادر الهندية وهي اذا ما اتجهت منها جنوباً ما زلت في رمال قاحلة لا ماء ولا مرعى الى ان تصل القطيف فاذا وصلت القطيف وصلت واحة من اخصب الواحات في بلاد العرب وتستمر هذه الواحة جنوباً حتى تبلغ قطر وهي أي قطر شبه جزيرة كثيرة الرمال قليلة النبات قل ان ترى فيها شيئاً اخضر وهي تابعة لمتصرفية نجد أيضاً

والبلاد بين قطر والقطيف تعرف قديماً بارض البحرين وتعرف اليوم بالחסا او الاحساء

وربما أطلق هذا الاسم في الخارطات على كل البلاد من قطر الى البصرة. وبين شبه جزيرة قطر والقطيف جزيرة البحرين ومياها كثيرة عذبة وبمضا ينبع في البحر وعدد سكانها نحو ستين ألفاً. وهذه البقعة اي بين رأس قطر والقطيف مغاص من أحسن مغاوص اللؤلؤ في العالم كانت ولا تزال الى اليوم . وسكان قطر وجزيرة البحرين كلهم يشتغلون بالفوص مدة خمسة أشهر كل سنة من حزيران الى تشرين الاول.

قلنا ان البلاد من البصرة الى شبه جزيرة قطر تشكك متصرفية من نحو اربعين سنة وتشتمل على ثلاثة افضية قضاء قطر وقضاء القطيف وقضاء نجد وعدد سكان هذه المتصرفية يبلغ مئتين وخمسين ألفاً. ومن مدنها بدعة وهي مدينة قطر والعقير وهي ميناء هناك والحسا وتسمى الحفوف ايضاً وهي هجر القديمة المعروفة بكثرة تمرها. والمبرز. والقطيف وهي ميناء ايضاً. وأهمية هذه المتصرفية انما هي لانها مفتاح العربية من جهة الشرق وطريق تجارتها مع الهند وبلاد فارس وفوق ذلك فالحسا هي المحطة الاولى على طريق القافلة من خليج فارس الى مكة وجدة والمدينة

وقبل ان انتقل من هذه المتصرفية لا بد لي من القول ان البحرين وهي جزيرة اللؤلؤ هي الان تحت حماية الدولة البريطانية وقد تداخلت في نصب حاكم لها منذ سنة ١٨٦٧ فاما في تلك السنة نصبت عيسى بن علي حاكماً او سلطاناً على الجزيرة بعد ان عزلت اياه عن كرسي الحكم. ومنذ بضع سنين اصبحت تدعي ان لها حق الحماية او الوصاية على الكويت ولها فوق ذلك من النفوذ في كل خليج فارس ما لا يسع احداً من ساسة العثمانيين ان يجهله فانها هي المسيطرة معنوياً على كل الحركات التي تجري على شواطئ هذا الخليج الغربية والشرقية في بلاد فارس وفي بلاد العرب وفي بدايتها متى شاءت ان تثير الجواطر او تسكنها فان عمالها هناك اهل ادراك وبقظة لا تفوتهم حركة ولا سكونة تنتفع بها امتهم او يزاد بها نفوذ دولتهم بوجه من الوجوه . اما معنى الحماية البريطانية فمنع معاودة تجارتهم ومنع بيع الرقيق عائناً حيث لهم معتمد خصوصي ثم ترك الحكم وشأنهم والقضاة وشأنهم يظلمون او يعدلون ويرتشون او يفتنون فاذا تجاوزوا ذلك الى مخابرة سياسية او اظهروا شيئاً من الاستقلال في تصرفاتهم مع دولة أخرى فحينئذ تظهر الحماية البريطانية ويظهر أثرها بالمنع وفي ما عدا ذلك لا أثر لها الا ان يكون ذلك مرتباً سنوياً تدفعه الدولة البريطانية للشيوخ او الامير عن حماية التجارة او منع بيع الرقيق أو تألفاً له

شمر والقصيم

شمر بلاد او واحة واقعة بين اجا وسلمى جبلي طيء وعاصمتها حائل وهي مدينة ابن الرشيد وكبرسي امارته والى جنوبيها القصيم العليا والقصيم السفلى وفيهما غنقين وبريدة مدينتا نجد (نجد الحجاز). وشمر والقصيم بلاد طيبة الهواء جيدة التربة. وبلغريف يقول ان حائل لا اثر فيها للبعوض والذبان ولا للقمل والبراغيث. ويقول ايضا ان الجزيرة لا رائحة لها واللحم لا يخر هناك. وسماؤها غاية في الصفاء ونسبات اسحارها لا اعل ولا انعش منها حتى نسبات اعالي لبنان فانها تقرب منها ولا تماثلها. وقد تغيرت الشؤون على حائل من ايام بلغريف الى الآن فكانت في ايامه تابعة لرياض تعترف بسيادتها عليها

فلما وقع الخلاف بين ابني فيصل الوهابي سعود وعبد الله ودارت الدائرة على عبد الله حتى لجأ اخيراً الى مدحت باشا ضعف شأن رياض. وعندها استقلت حائل وما زالت بعدها تنازع رياض السيادة فتارة لها وتارة عليها. وكان ضلع ولا تقا في بغداد والبصرة مع حائل وكثيراً ما جعل بعض امراء بيت الرشيد حماة لطريق الحج من قبل العثمانيين ومن ثم فهم يعترفون بسيادتنا عليهم ان لم يكن فعلاً فاسماً وأقل ما للعثمانيين من الحقوق على حائل بل ورياض ايضاً الحماية التي هي أشبه بالحماية البريطانية على كثير من اجزاء الجزيرة العربية في جهات اليمن والشحر او في جهات الخليج الفارسي

وهذا الحق يتصل اوله باستفحال امر الوهابية في رياض وامتداد سلطتهم وما ترتب على ذلك من الفتوحات المصرية العثمانية تحت امره محمد علي باشا وابنه ابراهيم باشا فان كل الولايات السعودية الوهابية وتشمل نجد واليامة والعارض ووشم والسدير والقصيم وشمر وعسير اليمانية كل هذه دخات حينئذ في حوزة العثمانيين واصبحت تابعة لهم من ذلك الحين واكد هذه التابعة سنة ١٨٧١ التجاء عبد الله بن فيصل الى العثمانيين واعتراف امراء حائل لهم بالسيادة العامة ومثلهم امراء رياض من بيت سعود اثناء المنازعات التي وقعت بين امراء هذين البيتين من حوالي اربعين سنة الى الآن

اما رياض والبلاد النجدية التابعة لها ففيها واحات كثيرة وكبيرة ايضاً وهي أخصب تربة وأطيب هواء وأجمل مناظر من بلاد شمر ولعلها على ما يقول بلغريف من اجمل بقاع الدنيا وأعدلها هواء ينسب عندها جمال لبنان وتتضاءل مناظر ايطاليا لدى محاسنها المتنوعة. وعلى ذكر نجد اقول ان نجد هي قلب البلاد العربية ومحمد العرب المدنانية وكانت ولا تزال متغزلاً لشعرائهم واليها منزع افئدتهم وقلوبهم فاذا أبعدت النجعة اعراها عنها لا يزالون

في شوق وحنين الى ان يرجعوا اليها واشعارهم فيها غابة في الرقة وجمال الوصف. ويحضرني منها قول بعضهم

اقول لصاحبي والعيس تهوي بنا بين المنيفة فالضهار
تمنع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار
ألا يا حبذا نفحات نجد ورياً روضه بعد القطار
واهلك اذ يحل الحمي نجداً وانت على زمانك غير زاري
شهور يقضين وما شعرنا بأنصاف لمن ولا سرار

وقال آخر وهو الصمة بن عبد الله بن طفيل

قفا ودعا نجداً ومن حل بالحمي وقلّ لنجد عندنا أن يودعا
بنفس تلك الارض ما اطيب الربا وما أحسن المصطاف والمترابا
ولست عشبات الحمي برواجع عليك ولكن خذ عينيك تدمعا
ولما رأيت البشر اعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحنّ نزا
بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم اسبنا معا
تلفت نحو الحمي حتى وجدتني وجمت من الاصفاء لينا وأخذعا
واذكر ايام الحمي ثم اثني على كبدي من خشية ان تصدعا

ونجد تجمع القصيم والوشم والعارض واليهامة وفالج وربما بلغ عدد سكانها اليوم ما يزيد عن المليونين من النفوس وفيها من المراعي في الجبال والتجود والاراضي الخصبة الزراعية في الشعاب والاوادية ما يماثل مراعي سوريا وارضها الزراعية من جنوبي فلسطين الى ما وراء انطاكية شمالاً ومن البحر المتوسط غرباً الى البادية بادية سوريا وفلسطين شرقاً. ونجد كثيرة الآبار وقد لا يكون اعماقها اكثر من خمس عشرة قدماً والمرجح ان فيها ايضاً معادن غنية من الذهب والفضة والنحاس والحديد على انه ان لم تكن غنية في المعادن فهي غنية بطيب الهواء وجمال المناظر وكثرة الزرع والضرع واذا اجتمعت كلها الى كلمة العثمانيين واصبح يخفق فوقها العلم العثماني الدستوري كما هو يخفق الآن على ربوع الشام كان في ذلك من القوة للعثمانيين ما لا توازيه كل قوة ولاياتنا الاوربية في الراجح ولا بضرنا فقد الهرسك والبوسنة ومثلها من الاملاك الاوربية اذا انضمت اليها نجد وجمعت نصيبها مع نصيبنا كما سنين ذلك ان شاء الله

ولاية الحجاز

الحجاز ولاية كبيرة شاسعة الاطراف طولها من الشمال الى الجنوب نيف وخمسمئة ميل وعرضها يتراوح بين الستين والمئة وخمسين ميلاً ويمر فيها من الشمال الى الجنوب طريق الحاج الشامي والمصري وليس فيها اثر للعمارة حتى تصل الى العلا. ويقال بالاجمال ان الحجاز بلاد شظف وسوء عيش في اكثر اقسامه إلا ما كان من جبل قري الى الجنوب الشرقي من الحرم فان البلاد هناك ذات زرع وضرع وفيها المياه الجارية عدداً لا تقطع وترتبا خصبة وهوؤها طيب معتدل ويقدر عدد الاهلين في هذه الولاية بين المليونين والثلاث ملايين

وشهرة الحجاز اليوم ان فيها مدينتي الاسلام مكة والمدينة وهذا وحده مما يجعل الحجاز اهم ولاياتنا العثمانية واسباب ذلك لا تخفى على احد فان حماية الحرمين وحماية الطريق الموصل الى مكة وتسهيل فريضة الحج على المسلمين ينظر اليها امراء المسلمين في كل الاقطار الاسلامية من اقرب القربات الى الله وللسلطان المتولي ذلك المقام الاول والمنزلة الاولى بين سلاطين المسلمين ومهما عظم ملك غيره وكثر جنده وتوفر غناؤه فهو مرتبة دون مرتبة من وكل اليه حماية الحرمين

واما شهرة الحجاز قبل الاسلام فكانت من حيث هو طريق التجارة بين مصر والعراق وبين الشام واليمن . وكانت مدينته العظمى مكة حجاً لعرب ومركزاً لتجارهم ولا سيما الاعراب منهم قبل الاسلام بمئات من السنين. ويتلوا في الاهمية المدينة واسمها القديم يثرب قلت ان عرض الحجاز شرقاً يغرب يتراوح بين الستين والمئة والخمسين ميلاً وارجح انهم قالوا ذلك لانهم جعلوا حد الحجاز شرقاً النفود. على ان النفود الكبير الشمالي الذي فيه تباه والجهاء والجوف اولى ان يكون من الحجاز . والحجاز كثير الحرارة كحرارة المواهب وحرارة خيبر وحرارة بني سليم والحرارة الدنيا والحرارة الرجلاء والحرارة القصوى وحرارة ليلي وحرارة النار وغيرها من الحرارة . والحرارة هضة بركانية ذات حجارة سود نخرة وربما علت الحرارة مئات من الاقدام على ما يجاورها من الارضين . وهواء الحرارة اجمالاً طيب للغاية يقوي الاجسام ويشدها صيفاً وشتاءً

على ان القائم في الاذهان هو ان هواء الحجاز شديد الحرارة شديد الوبالة ايضاً ولا يصح هذا الحكم الا على بعض اقسام الحجاز ويانه ان الحجاز منه غور ومنه نجد ومنه اودية الى البحر تتسلط عليه رياح الغرب ومنه اودية الى الشرق وتتسلط عليه ريح الصبا الشرقية

فالغور وما قابل البحر من الاودية واسناد الجبال كل ذلك يكثر فيه الحر والرطوبة ومناخه كمناخ جدة او سواكن وغيرها من مرافئ البحر الاحمر المعروفة واما غيره ففي هوائه من الطيب والاعتدال ما يجيبه الى اهله . واليك ما جاء في كتاب وصف جزيرة العرب للهمداني المشهور طبع ليدن بمطبعة بريل سنة ١٨٨٤ وجه ٤٨ قال ما نصه . ان جبل السراة وهو اعظم جبال العرب واذكرها اقبل من قرة اليمن حتى بلغ اطراف بوادي الشام فسمته العرب حجازاً لانه حجز بين النور وهو هابط وبين نجد وهو ظاهر فصار ما خلف ذلك الجبل في غريبه الى اسياف البحر من بلاد الاشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها ودونها الى ذات عرق والجحفة وماصاتها وغار من أرضها الغور غور تهامة وتهامة تجمع ذلك كله وصار مادون ذلك الجبل من شرقيه من صحاري نجد الى اطراف العراق والسماوة وما يلها نجداً ونجد تجمع ذلك كله وصار الجبل نفسه سراته وهو الحجاز وصار ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر الى ناحية فيد وجبلي طيء الى المدينة وراجماً الى ارض مدحج من تثليث وما دونها الى ناحية فيد حجازاً فالعرب تسميه نجداً وجلسا وحجازاً والحجاز يجمع ذلك كله . انتهى عن الهمداني

اذا تأمل متأمل وجد ان جبل السراة يمتد من اليمن جنوباً الى الشام شمالاً وبينه وبين البحر غور يعرف ما صالى منه الحجاز بنور الحجاز او تهامة الحجاز او تهائم الحجاز وكله حجاز ثم ان السراة اذا وصل الطائف مال شرقاً كما في زاوية وترك مكة (وهي مدينة الحجاز) بينه وبين البحر فاصبحت البلاد من جدة الى مكة الى ذات عرق كلها غورية او تهامية وتهامة كلها شديدة الحر رطبة الهواء واما ظهر السراة وهو حجاز وما امتد منه شرقاً وعلا وكله حجاز كما رأيت ومن ولاية الحجاز ايضاً فواءه او طباعه . متدل كنجد ولاهله حنين وشوق اليه كالنجديين الى نجد وهم يفضلونه على العراق وعلى اطيب بقاءه اعني بندا واليك من اقوالهم ما يشف عما ذكرنا قال بعض الاعراب :

تطاول ليلى بالعراق ولم يكن	علي با كفاف الحجاز يطول
فهل لي الى ارض الحجاز ومن به	بعاقة قبيل الفوات سبيل
اذا لم يكن يني وينك مرسل	فرح الصبا مني اليك رسول

وقال آخر

سرى البرق من ارض الحجاز فشافني	وكل حجازي له البرق شائق
فواكدي مما الاقي من الهوى	اذا حن الف او تألق بارق

وقال آخر

كفي حزناً أني بيغداد نازل
اذا عن ذكر للحجاز استغزني
وقلبي باكناف الحجاز رهين
الى من باكناف الحجاز حين
فوالله ما فارقتهم قالياً لهم
ولكن ما يقضى فسوف يكون

وقال بمض شعراء الاندلس

وما وجد اعراية بان اهلها
اذا ابصرت ركياً تكفل شوقها
فحنت الى بان الحجاز وورنده
بنار قراء والدموع بورده
وان اوقدوا المصباح ظنته بارقاً
يحبي فهبت للسلام ورده
باعظم من وجدي بموسى وانما
يرى انني اذنبت ذنباً بوده

وغير ذلك من اشعارهم كثير مما يدل على ان ليس كل الحجاز جدة ومكة في شدة حرهما ولا كله قفار ورمال كمعظم طريق الحج حتى تصل مدائن صالح او قرية العلاء بل فيه من المرتفعات والنجود والادوية الحصية ما لا يقصر عن نجد في طيب الهواء وجمال المناظر وارتفاع العمران واغلب الذين زاروا الحجاز وخبروا جهاته يعرفون الطائف وجبل قري وما في البلاد هناك من الجمال والاعتدال في الاهوية والاخلاق والذي اريد ان يبق في الاذهان وتوجهه اليه خواطر من يهمهم الامر ان الحجاز (والمحافظة عليه وامتلاك قلوب اهله) ضروري لعظمتنا المأنيمة لا يعادله من هذا القبيل ولاية ولا ولايتان حتى ولا ثلاث ولايات ايضاً ولو كن من اهم ولايات الدولة ومن اكثرها ساكناً وغنى واوسمناً تجارة

متصرفية عسير

بلاد بين اليمن جنوباً وأرض الحرمين شمالاً وهي جبال وسهول أمّا الجبال فطيبة الهواء كثيرة المياه ولكنها عسرة المسالك وأمّا السهول فخصبة جيدة المراعي جيدة التربة ينبت فيها كل انواع الحبوب والقطاني . وسهول ينشأ الى جهة الشرق قد تستغني بمحصولاتها الطبيعية عما يرد الى الحجاز من الطعام عن طريق جدة والقنفذة على شواطئ البحر الاحمر او عن طريق الحسا والكويت على شواطئ الخليج الفارسي . والعرب يخصصونها باسم الحجاز فاذا اطلقوا التسمية فهموا منها هذا القسم جنوبي الطائف حتى تصل ولاية اليمن (انظر ركهارت - البدو والواهيون الجزء الثاني طبع لندن وجه ١٣٢) وهو ما يراد بمتصرفية عسير الآن

وعليه فولاية الحجاز تشمل على ثلاثة اقسام القسم الاول الشمالي ويشمل البلاد
انواع فيها طريق الحج حتى تصل وادي القرى بقرب المدينة . والقسم الثاني المتوسط
ويشمل البلاد بين مكة والمدينة ويعرف بأرض الحرمين أو بلاد الحرمين والثالث الجنوبي
ويشمل البلاد بين ارض الحرمين وبين اليمن وهو متصرفية عسير

في هذا القسم اعني متصرفية عسير قبائل كبيرة كثيرة اشهرها بنو غامد وظهران وبنو
سالم وبنو عسير وأشهر هذه الثلاث بنو عسير وبلادهم جبالية متنوعة وبهم سميت
المتصرفية الآن وهؤلاء العسيريون فيهم ما يزيد على الاثني عشر بل والخمسة عشر الف
محارب على ما ارجح . وكان ابو نقطة من شيوخهم المشهورين في ايام محمد علي باشا الكبير
ثم كان بعده طعمة وهذا كان من كبار رؤساء الوهابيين من اعلامهم همزة وأكثرهم رجالاً
في موقعة كُلاخ أو بصال وهي الموقعة التي انتصر فيها محمد علي باشا سنة ١٨١٥ على
الوهابيين وقلَّ جموعهم وكانوا ما يزيد على الخمسة والعشرين ألفاً منهم من العسيرين . ثم
تابع انتصاره هذا فقتلهم الى ترابة وبيشة ومن بيشة توجه غرباً فاخترق جبال
العسيرين واستولى على قلعتهم المعروفة بقاعة طور بعد معركة شديدة وما زال حتى بلغ
شطوط البحر الاحمر قرب قنفذة ثم رجع من هناك الى مكة . ولما كانت البلاد جبلية طيبة
الهواء كان اهلها اشداء ذوي بأس ومجدة فقد حكي بوركهارت انهم وجدوا في موقعة
ببصال كثيرين من قتلى العسيرين وقد ربط كل منهم رجله الى رجل صاحبه كي لا يفرُّوا
وكانوا قد تماقدوا على ذلك وحلفوا عليه بالطلاق فلم يحشوا . ورؤي عن اسلافهم مثل
ذلك اثناء الحملة الرومانية التي وجهها الامبراطور طرايانس الروماني حوالي سنة ١٠٥
بمد المسيح لفتح البلاد العربية

وبالاجمال يقال ان هذا القسم من الحجاز ولا سيما بلاد عسير يشبه بلاد اليمن الجبلية
في تربته وهوائه ومائه وشدّة شكيمة اهلها ولا يبعد انه يشبهها في طبقات ارضه وما يحتويه
من معادن الذهب والفضة والنحاس والحديد . ومتصرفية عسير كانت ولا تزال تابعة
لولاية الحجاز ومن املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع ومن الضروري ان يحرص
عليها ولاتنا وقواد جيوشنا فانها كاهل الحجاز وحصنه المنيع . الا ان الثورة الاخيرة
قد فتحت فيها ثمة ولا يستبعد مع الاهال وترك اليقظة ان يدخل منها داخل على حين
غفلة فيدعي بعدها بحقوق الحماية او مدعي آخر يشوش علينا فيها سلامنا وحسن جوارنا
ولاية اليمن

اليمن — وقد سماها اليونان والرومان قديماً العربية السعيدة — هي مهد الجنس السامي

في الراجح ومركز تمدنهم القديم ومنشأ الدول العربية العظيمة قبل الاسلام وقد شفت الآثار مؤخراً عما وجه خواطر كثيرين من اهل البحث ومن جماتهم الاستاذ سايس الى القول بأن اليمن سابقة في تمدنها على مصر وبابل وأنها هي بلاد بُننت او فوط التي هاجر منها الى مصر اسلاف الفراعنة العظام وحملوا معهم اليها العلم والحكمة والزراعة والصناعة والتجارة . ومنها ايضاً في الراجح كان اسلاف البابليين والاشوريين الذين حملوا في مهاجراتهم الى تلك البلاد ما حملوه الى مصر من العلم والصناعة كما أن منها او مما جاورها من بلدان الجزيرة كان معظم الجاليات التي استعمرت شواطئ البحر المتوسط في سوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان وايطاليا وفرنسا وشطوط افريقيا مما يقابل جبل طارق حتى تصل الى مصر والسويس . وبالاجمال لا يستبعد ان تكون شبه جزيرة العرب وبالاخص العربية السعيدة اي اليمن ام القديمن القديم في كل آسيا الغربية وأوروبا وأفريقيا

هذه البلاد هي الان جزء من مملكتنا العثمانية وكان ممكناً ان تكون من اهم اجزاها وأفضلها وأغناها لأنها تجمع الى طيب الهواء وجودة التربة وكثرة المعادن والحجارة الكريمة اجمل المناظر الطبيعية وأنحما . جبال شاهقة من انخم الجبال وأغربها اشكالا وهيئات لا ينقص ارتفاع بعضها عن الاربعة عشر الف قدم فوق سطح البحر وأودية عميقة ولا اعرق منها . ولا اغرب وأعجب مما يجري فيها من المظاهر الجوية فانك ربما تنظر الى بعضها وأنت على اسناد جبالها فتراها مملوءة سحبا وترى البروق تدمج تحت نظرك بين هذه السحب وتسمع قصيف الرعد ثم لا تلبث الغيوم ان تنفث عن تلك الاودية فتراها تسيل مياهاً يحمل تيارها الشجر والحجر ايضاً ولعل القائل اشار بقوله

كأنني حيث ينشا الدخان تحتي فها انا لا أطل ولا أجاد

الى مثل هذه الظاهرة اليمنية الغربية والجميلة ايضاً

ليس جمال المناظر الطبيعية وان بلغ مهما بلغ ولا ارتفاع الجبال وان زادت على ارتفاع حملايا ولا عمق الاودية وان بلغ قرارة الهاوية — ليس شيء من كل ذلك بالامر الكبير لولا ان غنى البلاد الطبيعي في معادنها وزرعها وضرعها ونشاط اهاليها ايضاً يناسب ما المعنا اليه من نخامة جبالها وجمال اوديتها وروعة جلالها

مساحة اليمن وأقسامها

لا تقل مساحة اليمن بما فيه تهامة فيما أرجح عن المئة وعشرين الف ميل مربع ولا يزيد في ما أظن عن المئة والحسين الفاً منها بلاد جبال وخصب وهواء طيب ما يزيد عن

الثمانين الف ميل مربع في أقل تقدير والبقية بلاد رمال وحر شديد ووبالة الا بعض الواحات على جوانب أوديتها العظام مور وسردد وسهام ورمع وزبيد والموشج والموزع وعديم وعاصان ورغادة ومنيف والصهب ويافع وهي أودية تسيل ماء غزير أزمان المطر الا ان معظمها تتشربه رمال تهامة قبل أن يصل الى البحر . وتقسم اليمن اجمالاً الى قسمين كبيرين تهامة والحيال . وتهامة تهامتان تهامة الغربية وتهامة الجنوبية اما تهامة الغربية فتتمد على موازاة شطوط البحر الاحمر بينه وبين الهيال وعرضها في الاكثر لا يزيد عن الثلاثين ميلاً ويتسع أحياناً فيبلغ الحسين والستين وقد يبلغ ما فوق ذلك وهو نادر . ومن موانئ تهامة هذه طهياً والحديدة ومخا وأشهر مدنها زبيد على متوسط المسافة بين البحر والحيال وربما سميت باسم الوادي المبنية الى جانبه ومياهه عذبة لا تقطع وأما تهامة الجنوبية فتتمد من بوغاز باب المندب على شواطئ خليج عدن ما يزيد عن المئتي ميل طولاً ويختلف عرضها بين الحسين والمئة ميل ومن أشهر موانئها عدن وهي الآن في يد الانكليز اختلفوا مع حاكمها سنة ١٨٣٩ فباغتوا حاميتها ودخلوا حصنها عنوة قرأوا عقلاً ولا احصن وموقعاً تجارياً ولا أهم فأدخلوها في عداد أملاكهم فأصبحت اليوم وحصونها من امنع حصون الدنيا ومينائها من احسن الموانئ وأوسعها فتحوات اليها من ثم معظم تجارة اليمن بعد ان كانت ترد الى مخا والحديدة . اما مخافات تجارتها واندرس عمرائها او كاد يندرس وأما الحديدة فأما اتقى على عمرائها انها مركز حكومة تهامة وميناء صنعاء الحربي وأن البلاد التي هي ميناء لها بعيدة أيضاً عن عدن بعداً شامعاً . ويقال في تهامة اجمالاً انها مرغى جيد أيام الشتاء والبرد الشديد في الهيال ولكنها في أيام القليظ سُورٌ متوقد

وأما اليمن الهيال فتقسم الى اقسام كثيرة تعرف قديماً بمخالف اليمن كل قسم منها مخلاف وكان عليه في الغالب امير او شيخ يخضع لامير صنعاء اذا كان هو قوياً ذا حول وطول او يستقل عنه اذا وجد من نفسه قوة ومن متبوعه غفلة وضعفاً . واليك الخاليف التي ذكرها المهداني صاحب كتاب صفة جزيرة العرب نذكرها لك كما ذكرت في فهرست الكتاب مرتبة بحسب الحروف الابدجية لا بحسب مواقعها الطبيعية : مخلاف آل ذي جرة . مخلاف اقيان . مخلاف الحان . مخلاف ذي جرة وخولان . مخلاف جيشان . مخلاف حراز . مخلاف حضور . مخلاف خولان . مخلاف ذمار . مخلاف ذي رعين . مخلاف رداع . مخلاف رداع وثان . مخلاف السحول . مخلاف شبام . مخلاف شبوة . مخلاف الشرف الاعلى . مخلاف عثر . مخلاف بني حامر . مخلاف العود . مخلاف لاعة . مخلاف مأذن

مخلاف مأذن وحملان . مخلاف مأرب . مخلاف المعافر . مخلاف الممعل . والذي يرجح عندي ان هذه الخاليف هي المشار اليها في نبوة ارميا بمالك حاصور او « حضور » ولعل السيادة في ذلك الوقت كانت لمخلاف حضور وهو على مقربة من صنعاء ولا يبعد ان صنعاء كانت المدينة العظيمة في هذا المخلاف الذي كان فيه مقر السيادة او الامارة العظمى حينئذ

صنعاء وما حوالها

موقع صنعاء شرقي الحديدة بميلة الى الشمال وشمالى عدن مع بعض الميله الى الغرب وتبعد عن الاولى مئة وخمسين ميلاً وعن الثانية مئتين وسبعين ميلاً . وهي قلب بلاد اليمن ومركز دائرتها موقعاً ونجارة وسياسة وهي مبنية على قاع متسع في غربي جبل تقم . ويتشعب من هذا الجبل هضبة فارعة عليها قلعة او حصن يطل على المدينة ويتسلط عليها والمدينة ثلاثة احياء حي العرب والترک وفيه الاسواق ومركز الحكومة وبيوت الاهلين وحي اليهود وهو منفصل عن الحي الاول بسيف من الارض القاحلة ويحيط به سور له على حدة وحي بير العصاب وفيه الجنائن وقصور الاغنياء من عرب وأترک ويحيط بهذه الاحياء كلها سور من الاجر المجفف بالشمس الا ان معظم الابراج والحصون على السور مبني من الحجر الصلد . وللمدينة اربعة ابواب باب على كل جهة من الجهات الاربع وعدد سكانها على ما يرجح يبلغ نحواً من خمسين الف نسمة منهم عشرون الفاً يهود (انظر كتاب هرس « رحلة في اليمن » طبع لندن سنة ١٨٩٣ وجه ٣١٢) والمدينة تعلو عن سطح البحر ما يزيد عن سبعة آلاف وأربعمئة قدم

قلنا ان صنعاء واقعة في قلب البلاد اليمنية عدن الى الجنوب وصعدة ونجران الى الشمال والحديدة الى الغرب ومأرب عاصمة بلاد سبا قديماً الى الشرق . وفي مأرب هذه السد العظيم الشهير المعروف بسد مأرب وعرض هذا السد او ثخنه مئة وخمس وسبعون خطوة وطوله نحو الميادين على الاقل ويصل بين الجبلين على طرفي الوادي وأما علوه فكان يزيد على المئة والعشرين قدماً . وما زال قائماً نحواً من عشرين قرناً تقريباً . ومن اراد فليراجع وصفه في مروج الذهب للمسعودي فانه من أهول وأضخم وأنفع ما بناه الاقدمون وليس سد اصوان الحالي في جانبه الا ولداً صغيراً بالنسبة الى الجيار العظيم

جاء في شرح قصيدة ابن عبدون طبع ليدن وجه ٩٧ و ٩٨ - وقد نقل الشارح

ما كتبه عن المسعودي — ما نصه

كانت بلاد مأرب جنة واحدة متصلة « وكانت العمارة فيها ازيد من مسيرة شهرين

للراكب المجد وكانوا يقبسون النار بعضهم من بعض مسيرة ستة اشهر وكانت المرأة اذا ارادت ان تجتني من ثمرها شيئاً وضعت مكثها على رأسها وخرجت تمشي تحت الثمار وهي تغزل او تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمضي مكثها انما شاءت من الثمر الذي يتساقط طيباً» هذه العبارات تشير الى العمران العظيم الذي كان للبلاد العربية اليمن ونجد والحجاز وأرض البحرين . ولا أشك ان العمران كان بحيث يجوز ان يوصف بمثل الوصف المار ذكره— اذا تسامخنا مع الكتاب ذوي الخيلة الذين كانت تحركهم محركات من الانفعالات عند ما كانوا يكتبون ما يكتبون— لان في الآثار الباقية من الادلة ما يصدقه واليك منها (اولاً) السدود التي على شاكله سد ما رب فانها كثيرة جداً تصادفها حينما سرت في اليمن . قال الهمداني في كتابه وصف جزيرة العرب ما نصه

« ويحضب الملو على ما خبرني ابو غالب بن ابي العباس بن ابي غالب السفلي ثمانون سداً قد ذكرنا عنه في كتاب الاكليل كبارها وفيها يقول تبَّع وبالربوة الخضراء من ارض يحضب ثمانون سداً تقاس الماء سائلاً »

(ثانياً) ما يرى من المصانع والكرف واحدها كريف وهي مخازن الماء منقورة في الصخر الصلد من اشهرها ما ذكره الهمداني في باب ما أثر اليمن قال « ومنها كريف يسمى الوفيت منقور في الصفا الاسود وعمقه في الارض خمسون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً والطول خمسون ذراعاً محجوز على جوانبه جدار يمنع السقوط فيه وكريف درداع يكون ستمئة ذراع في مثلها (الهمداني وجه ٧٨) هـ . وهذه الكرف او البرك كثيرة جداً في اليمن تصادفها حينما سرت

(ثالثاً) الخرائب القديمة واليك بعض ما ذكره الهمداني منها قال « ومنها خربة سلوق وكانت مدينة عظيمة بأرض خدير واسم بقعتها اليوم حيل الريبة وهي آثار مدينة عظيمة فيها خبت الحديد وقطاع الفضة والذهب والحلي والنقد واليه كانت العرب تنسب الدروع السلوقية . ومنها جبل في مشرق وحافظه في رأس الجبل جثوة قصر منهدم لا يزال يوجد فيه الجوهر والذهب والناس ينزونه كما ينزون خربات الجوف » (الهمداني وجه ٧٨ و ٧٩)

(رابعاً) كثرة المعادن فان في نجد وحدها من المعادن ما ذكره الهمداني صفحة ١٥٣ حيث قال « ومعادن اليمامة وديار ربيعة التي توطنتها اليوم عقيل بن كعب معدن الحسن والحسن قرن اسود مليح وهو معدن ذهب غزير . ومعادن الحفير بناحية عماية وهو معدن ذهب غزير . ومعادن الضبيب عن يسار هضب القليب . ومعادن الثنية ثنية ابن عصام

الباهلي معدن ذهب . ومعدن العوسجة من ارض غني فويق المغير بيطن السرداح . ومعدنا
شهام الفضة والصفير . ومعدن تياس ذهب مخف بتياس . ومعدن العقيق معدن الحججة بين
العمق وبين افيمية . ومعدن يدشة . ومعدن الهجيرة . ومعدن بني سليم . فهذه معادن نجد اناهي
والذي ارجحه ان المعادن من كل الانواع ولا سيما الذهب والفضة والنحاس والحديد
هي في اليمن وحضرموت اكثر منها في نجد . وفيها ايضاً اي اليمن وحضرموت الفحم
الحجري والبتروول وأنواع من الحجارة الكريمة

اذا احضر القارىء كل ما ذكرناه في ذهنه لم يصعب عليه بعد ذلك ان يتصور امكان
وجود العمران العظيم الذي اشار اليه المسعودي في كلامه عن سد مأرب ونقلنا تنفة منه
عن شرح قصيدة ابن عبدون ولا يصعب عليه ان يتصور ايضاً ان مثل هذا العمران يمكن
ان يعود الى العربية السعيدة مع الايام فتصبح هي ونجد من افضل ولايات مملكتنا
العثمانية الدستورية

عدد سكان اليمن

يقدر عدد سكان اليمن العثمانية بين المليونين والثلاثة ملايين والمرجح عندي ان
بلاد مأرب ونجران غير داخلتين في هذا الاحصاء لان البلادين وان كانتا ضمن منطقة
املاكنا العثمانية التي لا ينازعنا فيها منازع الى الآن فان سلطتنا الفعلية الحقيقية لم تتجاوز
صنعا الى الشرق والشمال الا مسيرة يوم او ما لا يزيد عن الثلاثين ميلاً في الاكثر وأما
ما وراء ذلك فكان ولم يزل تابعاً لنا بالقوة لا بالفعل ولا يعلم من احواله وعدد سكانه
شيء الا على سبيل التخمين . والراجح ان في بلاد مأرب ونجران وأطراف اليمن ووادي
دواسر (وكل هذه البلدان يجب ان تكون عثمانية ويمكن ان تكون عثمانية ولحد الآن
لا نجسر دولة من الدول غيرنا ان تدعي بشيء من الحماية على شبر واحد منها) ما يزيد
على المليون فوق ما يقدر عدد سكان اليمن العثمانيون يزيدون الآن عن الاربعة ملايين
واذا تم الامن وبطلت من بينهم الحروب والمجاولات المستمرة فلا يمر الا القليل من السنين
حتى يتضاعف عددهم ثم يتضاعف ويتضاعف لان في البلاد من الغنى الطبيعي ما يقوم
بالملايين الكثيرة

سكان اليمن

اليمن بلاد حضارة قديمة العهد جداً ولذلك فأغلب أهاليه حضر يسكنون المدن
والقرى ويمشون من الزراعة والصناعة . وهم اهل جد ونشاط في زراعتهم لا يفوقهم احد

في ذلك على ما أرجح حتى ولا الانكليز او الالمان اهل الكد والنشاط
انا تعجب من اهل لبنان ونشاطهم لانهم كما يقال ينقلون التراب ثقلاً الى ما بين الصخور
حيث يجدون مكاناً لنصبه من التين او الزيتون او غيرها من انواع المغروسات النافعة .
ولا نعلم في ولايتي بيروت وسوريا عن نشاط كنشاطهم او كد ككدهم حتى اصبحوا مضرب
مثل في كل سوريا من أقصاها الى اقصاها الا ان الذين شاهدوا اللبن من نيبوهر الى هرس
وزويمر كلهم شاهدوا حيران شجرة البن قائمة بعضها فوق بعض ولا قيام صفوف المدرج
(الامفيتيار) وكلهم يشهدون بالنشاط والقوة اللذين يبذلها اليمينيون في عمارة اراضيهم —
نشاط وقوة لو بذل اللبنانيون مثل نصفهما لكان كل لبنان جنة واحدة متصلة الاطراف
من الجنوب الى الشمال ومن الشرق الى الغرب . ان اودية اليمن — واليمن الجبلية تكاد
تكون كلها اودية — تراها كلها من اسفها الى اعلاها مدرجاً واحداً تغطي حيرانه شجيرات
البن او غيرها من الاشجار ذات النثر والثمر . ولقد بينون الجدران الحجرية القوية بعالون
بها الى العشر الاقدام ويملاً ونها تراباً ليرجحوا ما لا يزيد عرضه من التربة على خمس اقدام
او ست . قال هرس عدت مائة وسبعة وثلاثين حائراً من هذه الحيران يعلو الواحد منها
فوق الآخر (الحائر والحير بمعنى الجبل في لغة اهل لبنان) وكلها مبنية جدرانها بالحجر
الصلد بناءً محكماً لا يقل ارتفاع جدرانها عن التسع اقدام

لو كنت مصوراً لرسمت هنا للقراء احد الرسوم التي رسمها هرس في كتابه «رحلة في
اليمن» فان نظرة واحدة اليها تنقل الى اذهانهم مقدار ما يبذله اليمينيون من النشاط والكد
في زراعة اوديتهم وغرسها واعل استاذي لا يبخلان على القراء بنقل الصورة المرسومة
على الصفحة الثامنة من الكتاب المذكور الى المقتطف فتكون ذخيرة لهم يفهم النظر
اليها عن كثير من الوصف او يفهمون الكثير من الوصف بمجرد النظر اليها

طرق اليمن ومواقع مدنه

لو كان في الامكان ان انقل الى المقتطف الاغر او ينقل اليها هو رسمين آخرين من
رسوم هرس وهما مقابل صفحة ١١٠ و ٢١٨ من كتابه الذي اشرنا اليه قبيل الان لا غنتنا
هذه الرسوم عن صفحات من الوصف وانقلت الى الذهن بالجملة اثرأ صحيحاً عن طرق
اليمن ومواقع مدنه وقراء القائمة على شرفات الجبال وعواتقها المطلة على اوديته . قرى كثير
منها ان لم نقل أغلبها وكذات نسور لا يصعد اليها الا على طريق واحدة منقورة درجاً في

الحجر الصلد فيستطيع العشرة فيها ان ينمووا المئة من الوصول اليها والنتين وانثة ان تمنع الالف والالفين

ولتر هرس ذهب سنة ١٨٩٢ من عدن الى اليمن مكاتباً من قبل جريدة التيمس فسار الى صنعاء عن طريق لحج وذمار وخربة جران في حديث يطول شرحه وبعد ثلاثة اسابيع وصل الى صنعاء . ثم رده من هناك مخفوراً احمد فيضي باشا قومندان المعسكر السابع وكان ارسل لكبح الثائرين بعد ان كان اشتد امرهم على حامية صنعاء وضيقوا على الاهلين الحنائق فوصل هذا القائد الباسل الى عاصمة اليمن في نفس الشدة ففرج حالاً عن حاميتها وأهلها وأرسل القواد الى بقية الجهات لاسترداد المواقع التي كان الثوار قد استولوا عليها وفيما هو كذلك اذا بالمستر هرس هذا امام دار الحكومة . ورأى القائد الباسل احمد فيضي باشا ان مقتضى الحال والمصلحة يقضي بارجاعه الى حيث أتى فأرسله الى الحديدة عن طريق مناخة . وقد اخترت تلخيص ما كتبه هذا الكاتب الشاعر عن طريقه من صنعاء الى مناخة الى الحجيلة . والحجيلة بلدة في آخر بلاد الجبال من جهة صنعاء وآخر بلاد تهامة من جهة الحديدة وقد فعلت ما فعلت لاقتل على أخصر طريق الى ذهن القسارى شيئاً من جمال جبال اليمن وأوديتها وشيئاً آخر من مواقع قراها وصعوبة مسالكها

قال المستر هرس ما محصله . قنا من صنعاء صباحاً فوصلنا قهوة متنة حوالي نصف النهار فخططنا لتتعدى الظهر ونستريح قليلاً ومن ثم سرنا حتى وصلنا بوان والطريق تأخذ كلها صعوداً . ومن بوان اغدنا النير فوصلنا الى سوق الخميس مساءً ونما هناك . ولما باغنا اعلى العقبة قبل ان وصلنا الى سوق الخميس بقليل كنا على علو عشرة آلاف قدم فوق سطح البحر

ثم اخذ بصف الطريق بين بوان وسوق الخميس وقد اخترت هنا الترجمة الحرفية تقريباً قال « الطريق بين بوان وسوق الخميس عقبة في رأس جبل تشرف شمالاً على واد كبير عمقه نحو من بضعة الف قدم . ويا له من واد ما اجمله وأنجمه واد تملأه اشجار البن ويزخر زخراً بأصناف النباتات الزاهية البهية المجيدة ومن بينها اغراس الموز بأوراقها الكبيرة الخضراء تهز رؤوسها تهباً وادلالاً . وكانرى القرى بين هذه الخضرة الناضرة تتعلق بجفاف هذا الوادي ولكل قرية برجها . وكأنا كل قرية وكنة نسر تقوم على هضبة خلقت من صخرة واحدة . وكثيراً ما كنت اقف بعض دقائق لا ملاً نظري واعجابي من هذا المنظر الساحر الى ان تهور النهار فتصاعدت حينئذ الغيوم من الوادي اغشية رقيقة غطت ما امامي من اسناد الوادي وأخفت عن نظري ما كنت اراه الا قم الجبال على الجهة المقابلة فانها كانت تظهر

قائمة فوق بحر من الغيوم الملونة بألوان قوس السحاب كأنها المنائر أو قبب اجراس الكنائس
« فيالك من بلاد ايتها اليمن الساحرة. اي مجلدات من السوائف والتواريخ لا تزالين
تسكتمين عن علمنا وبصائرنا في اوديتك هذه العظيمة واسناد جبالك الشاخنة . وأية
قصص كان ويكون في امكان جدا ولك الصافية المتكسرة ان تقصها علينا . من لا يعلم ان
ماءك الزلال كثيراً ما جرى احمر بما مزجه من دم المهجات والاكياد . تسربت حنادس
الليل فانقلب المنظر من امامي الى منظر سكيئة رهيب . سكيئة غريبة في نوعها واكتمها تسحر
النفس وعلاها هية واجلالاً

« لما تركنا سوق الخميس في الصباح التالي كانت المناظر امامنا في جمالها ورونق جلالها
كذلك التي راعت نفوسنا بالامس فما اشرفت الشمس حتى انفشعت ضبابة المساء ولاحت
امامنا سلاسل الجبال سلسة وراء اخرى وقة تملو قة اخرى من ورائها الى ان علاها
كلها في نهاية الافق غرباً سلسلة عظيمة شاخنة حجبت عنا كل ما وراءها

« ثم اخذت الطريق تنحدر بسرعة وتلوى بنا طويلاً قنطرة ترى عليها اثر آمن ترميم
مهندسي الاثر الكونارية اخرى تراها بحيث تماسك عليها الاقدام تماسكاً على جانب الجبل ليس الا
« ولقد مررنا ببقعة هنا من اجمل ما رآته عيني من المناظر في اليمن على منتصف منحدر
تكسوه غابة من الشجر هنالك كان مقام لبعضهم (قبر وعليه بنية) والى جانبه ينبوع ماء
عذب تتكرر مياهه الى بركة عميقة ويقوم من ورائه على مسافة قة من الجبل جرداء
صخرية ترى في الافق الازرق وعلى رأسها انقاض قرية دكها المدافع العثمانية لم تترك منها
الا الجدران تحجر بسابق وجودها . وكل منحدرات هذه القمة او الهضبة فيما دون القرية
مكسوة بالشجر خميلة واحدة خضراء والمسجد المقام على القبر تعلوه القباب المهندمة البيضاء
يشيب بياضها خضرة الاشجار والرياحين حولها . وصوت المياه الجارية يزيد المنظر خلاصة
وسحراً فوق ما هو عليه من رائع الجمال والهدوء البالغ بمبالغه

« انتهى بنا اخيراً صعب الطريق فدخلنا وادياً خاويماً خالياً لزمنا المسير فيه حيث
يجري الماء وكان الوادي حينئذ ناشفاً ومجرأ مفروش بالصخور ومع ذلك فكان الين مساً
وأنتم ملساً من الطريق الاصلية . وكانت هذه تلوى حوالي النهر تروح ونحيء لانكاد
تبين لما فيها وحولها من الرضام والصخور الساقطة من المنحدرات فوقها

« وبعدها ساعة او ما يقارب الساعة مررنا من تحت قلعة مفهاق العجيبة وهي قلعة متربعة على
شاهق من الصخر يعلو نحواً من خمسة قدم على الوادي او ما يزيد . ثم اخذت الطريق
تصعد بنا ثانية وما زلنا برهة والطريق آخذة بنا في واد او شعب صغير من اجمل الشباب

التي رأيناها وكأنما هو مصغر لذلك الوادي الكبير الفخيم الذي الحنا إليه سابقاً . الصخور قائمة على الجانبين كأنها الجدران انى علو يتراوح بين الخمسين والمئة قدماً وقد نبت عليها انواع عديدة من الزهور البرية بما جعل الوادي لكثرة الوانه شبيهاً بالبساط المبقرى او بواد من اودية الجان (Fairy-land) خامات من الياسمين تغطي اجراف الوادي . وعلى اجراف الوادي وعلى جانبيه يزهر الطلح والصبر وتتضوع رواثهما وهناك شجرة ذات زهر كأنه زهر الذر نفل الفأح قد غرستها الطبيعة على جانبي مجرى الماء الضيق فتخال ان الانسان زرعاها في مكانها هذا تصدأ . مرت بنا ساعة على ما وصفنا وصلنا بعدها الى خان عجز فنزلنا نستريح وتتدى الظهر ولم نلبث الا برهة بين الساعة والساعتين لاني كنت شديد الرغبة في ان نصل مناخة قبل العتمة فركبنا بغالتنا وودعنا صاحب الخان ومن كان هناك من الجنود التركية وكانوا نفرأ يسيراً فكنا كلما تقدمنا في الطريق ازدادت هذه نخامة وجمالاً لأننا كنا توسطنا الجبال حيث مناخة على قمة بعضها كوكمة نمر او كن رخمة . قلنا انما كنا نسير في مجرى نهر الا ان علو هذا المجرى عن سطح البحر كان فوق خمسة آلاف قدم . فبينما نحن نسير انقطع بنا المجرى بفتة وأخذنا نصعد في عقبه شاقه وان كننا بعد ما مررنا من العقاب اصبحنا وقد اعتدنا السير في مثلها ولم تكن الطريق الا مجازاً في سند الجبل فرشت فيه الصخور النائية عن مقرها بساطاً غير وطيء فلم يكن يسعني ولا اظن انه يسع غيري ايضاً الا ان اعجب كيف تطبق بغالتنا الصغيرة ان تصل الى آخر هذه العقبة . نزلت انا وعبد الرحمن وسعيد عن بغالتنا في اسفل العقبة (وهو اولها) وأخذنا نتسابق عدواً نتسلق الصخور تارة وتدهور من عليها تارة اخرى . وما زلنا نستكدا انفسنا صعداً وقد خلفنا البغال مع المسكارين الى ان صعدنا ما يزيد على الفين وخمسة عشر قدم في تلك العقبة الكؤود المتلوية فلما وصلنا قمتها وكأنما وصلناها بفتة اذا نحن بمدينة مناخة الصغيرة على كندامانا فمزمت ان انتظر في مكاني الى ان يصل اليانا من كان يحرس علي من الجند وكنا قد سبقناهم مسافة بعيدة فرميت بنفسي وأنا حر ان الهت على حرف صخرة وأخذت اتأمل في ما امامي من المنظر وياله من منظر عجيب هائل ! حوالينا من كل جهة قمم جبال جرداء غريبة الاشكال والهيئات ومهاو تكاد تكون على خط عمودي . واحدى هذه المهاوي هي التي وقعنا عليها نستريح ومنتظر ومن على جانب منها كنا نرى العقبة التي صعدنا فيها تلتوى عنا والينا تارة ذات اليمين وتارة ذات الشمال وكانت البغال والمسكارية تترآى لنا كأنها العمل تتصعد عليها وكانت اشعة الشمس المشرقة تلى الغروب تلون قان الجبال بلون وردي وكثير من هذه القمم كانت أعلى منا بألوف من الاقدام تتوجها القرى والابراج الغريبة في باهام واقع وأشكالاً .

ثم لحقتنا البغال والرجال فركبنا بغالنا وقطعنا عليها المسافة القصيرة التي بقيت بيننا وبين مناخة ودخلنا المدينة آخذين في الطريق التي توصل الى مركز الحكومة حيث يقيم القائمقام وبعد ان تركت القائمقام ذهبت أنجول في المدينة يتبعني الحرس الا انه لم يكن يتعرض لي في شيء من حركاتي وسكناتي بل كنت أجتأ على الرسم برأى منه لولا مخافة ان تقع عليه ملامة فيما لو شوهدت أرسم في حضرةه ولذلك كنت أتجري الوقوف او الجلوس من وراء صخر مشرف وأرسم ما أريد رسمه ولا يراني أحد

« قدر لي ان أرى أما كن كثيرة الا ان موقع مناخة كان من أغرب وأعجب ما رأيته لانها مبنية على كتف جبل ضيق هو وصلة بين ساساتين من الجبال . وفي هذا الكتف خط مفرق المياه لوادين عظيمين جداً أولها الوادي الذي مررنا به حتى وصلنا اليها والثاني الى الغرب منها . والكتف هذا المبنية عليه المدينة ضيق جداً حتى ان كثيراً من جدران البيوت على جانبيه من هنا وهناك تقوم على أجراف الوادي العميق تحتها . بل بعض المباني تطل على الوادين معاً فيراها الجالس فيها في وقت واحد ومن موقف واحد

« ويزيد هذا المنظر الغريب غرابة ما حوله من القمم الغربية الاشكال القائمة حوله وماذا افول في وصفها؟ انه لا يحضرني الفاظ تشف عما يدل على اشكالها وهيئتها فانها غريبة في بابها يقف الخيان حائراً عندها . فوارع شاهقة جداً جرداء مصخرة متوعرة منتصبة كالجدران تنهي برؤوس كأنها قوالب السكر على كثير منها المعامل بناها الاهلون . اما كيف يصعدون اليها او ينزلون منها او من أين يستقون مياههم فيها فكل ذلك مما يوجب الاستغراب ويلقي في الحيرة والدهشة

« اما مناخة نفسها فمدينة صغيرة وربما لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة ويوتها من حجر أغلبها ذات ثلاث طبقات وبعضها ذات أربع وسوقها عامرة تجرد فيها كل ضروريات المعيشة المتمدة وفيها مخازن كبيرة واحد او اثنان منها لرجال من اليونان تجرد فيها ما تجرده في مثلها من مخازن مصر والاسكندرية

« وموقع مناخة يعلو سبعة آلاف وستة قدم عن سطح البحر ولذلك هو عرضة للتقلبات الجوية السريعة فانه لم يمر الساعتان على وصولنا تحت أشعة الشمس الحارة حتى طبقت السماء بالغيوم بما أخفى المناظر أمامنا عن أعيننا وهبطت درجة الحرارة الى خمسين فهرنيت فاضطررنا الى الاصطلاء بالنار على كوانين النحاس أنا ومن معي . وعند الساعة الثامنة أخذتني الحمى فجأة ولم تفارقني الى الساعة العاشرة من الصباح التالي وكنت في ذلك الحين لا أقوى على النهوض الا بمعاونة من ينهضني فتوقفنا عن السفر ولم يتصعب علي القائمقام

في المقام يوماً آخر بل بذل ايضاً كل ما في وسعه لراحتي . وبعد الظهر كنت استرددت شيئاً من قوتي فجردت قميصي الى ظل بين الصخور حيث أضرمت لي خادماي ناراً وطبخا قهوة « وكان الموقف الذي نخبرتة يشرف على الوادي الكبير غربي المدينة من اعلاه الى اسفله فرأيت حيران البن وغابات الموز ادراجاً بعضها فوق بعض ورأيت القرى وسطوح بيوتها امامنا كأنها رقعة شطرنج ينظر اليها اللاعب من علو . وكان على مسافة في الوادي يترامى لنا خيط من النور الفضي يتم على نهر جار هناك عدده من تلك المنحدرات الصخرية مئات من النهرات تتكسر مياهها على الصخور او تهبط من فوقها على طريقها لتلتقي بالنهر الكبير في اسفل الوادي . ثم من وراء ذلك كان ضباب رقيم جبال اختفت عنا الوانها فصارت كأنها الغيوم ولانكها جميلة جماداً لا يفتح عنه باسان

« الا ان أهمية مناخه ليست في جمال مناظرها وجلالها بل هي في موقعا الحربى لأن نقطتها تتسلط على الطريق السلطاني ما بين الحديدة وصنعاء وهي على نصف المسافة بين المدينتين تقريباً ومن أصلح النقط لحفظ خط المواصلة بين الساحل وصنعاء قلب البلاد اليمنية من مناخه الى الحجيلاء

« فمنا باكرآ في الصباح التالي نقصد الحجيلاء . والطريق في أثناء الاميال الاولى تأخذ في جانب الحيال على الجهة الجنوبية من الوادي وتذهب صمداً بالتدرج ساعة او ما يزيد حتى يبلغ ارتفاعها ثمانية آلاف قدم فوق سطح البحر وهناك تقطع ضحراً من الارض بقرب قرية المهجرة ثم تأخذ بالهبوط

« وقرية المهجرة هذه مبنية على شتر ترتفع اسناده من كل جهة كالجدران وظاهر القرية يدل على انها قرية كبيرة ذات أهمية فضلاً عن ان موقعها حصين جداً . وأما البلاد حولها فجميلة جداً — مياه كثيرة ولا ينقصها الشجر ايضاً

« لم نلبث الا قليلاً بعد ان تركنا المهجرة الى يميننا وأخذت الطريق تنحدر بنا حتى ظهرت لنا قرية اخرى اعجب وأعرب من القرية التي تركناها . والقرية يقال لها عطرة . اما موقعها فعلى مرتفع من الارض تحيط به من كل جهاته الحيران المدرجة ثم من وسط هذا المرتفع يهد قرن من الصخر يذهب صمداً في الهواء مئات من الاقدام وينقسم في منتصفه على خط عمودي الى قسمين يعلوان معاً وعلى رأس كل من القسمين بيت كبير ذو طبقات او معقل يلجأ اليه . والناظر الى هذين المعلقين لأول مرة يذهب ذهنه بادىء بدء الى السؤال كيف يتوصل اليهما فان العين لا ترى طريقاً لهما وبصعب على الناظر ان يصدق ان ثم طريقاً وقد اخبرني رفاقي ان الطريق اليهما في سلم منقور درجاً في الصخر — وعلى قاعدة

القرن بقية بيوت القرية تلفت حواليه. اجتزنا عطرة والطريق تتلوى بنا على جانب الجبل وما زلنا كذلك حتى وصلنا الى قهوة ويزل قبل الظهر بقليل. وموقع ويزل غريب جداً (نظير اكثر مواقع قرى اليمن) فانها على شفا جرف تحتها عميق جداً. اما المسكان بالذات فحقير وهو كواخ مغطاة بالحصر والكلاب للاستظلال بها وهناك جينة صغيرة فيها بعض الحيران يشرف الناظر من جدرانها الى الوادي العميق تحتها على خط عمودي تقريباً فجلسنا تحت شجرة ظليلة على بساط بسطناه تحتنا نروح نفوسنا ونمتع أعيننا بما حوالينا من المناظر الفخيمة وكنا في موقفنا اذ ذاك نعلو أربعة آلاف وخمسة قدم فوق سطح البحر وأمامنا مدرجات من حيران البن لم نر ما يماثلها الى الآن فان زراعة البن على أجودها في هذه الجبال ولا سيما على اسناد سلسلتي جبل مسار وصعقان (Safan) الى الشمال منا والجبال فوق هذه الحيران تملو صعداً في الهواء كالجدران ويكاد يكون على كل قمة من قممها قرية وحصن من القرى والحصون التي مرت بنا الاشارة الى وصفها فيما سلف. تركنا ويزل والطريق عقبه تنحدر وتتلوى بنا على سناد الجبل الا ان آثار العمارة ظاهرة عليها فان الأتراك وسعوا الطريق هنا وزرعوا الأشجار على جانبيها للظل ولتبع التربة من ان يجرفها السيل وما زلنا نمشي حتى وصلنا مجرى النهر في الوادي فلقينا حينئذ من المشقة أشدها لان المجرى وهو الطريق كان غاصاً بالرضام والصخور المدمكة الى حد لم تكن البغال تقوى فيه على السير الا بصعوبة شديدة فاضطررنا الى ان نمشي على أقدامنا وما زلنا نمشي والمجرى يتضايق الى ان صار مضيقاً لا يزيد عن مجرى السيل والصخور تملو على جانبيه كالجدران الى ما يقارب الثمانين قدماً. واستمر بنا المسير كذلك مدة الى ان تخلصنا من المجرى وصعدنا في تلة صخرية عن شماله. وبعد ان جزنا متناً صغيراً سهلاً أخذنا ننحدر نحو قرية الحجلاء فوصلناها بين الساعة والساعتين قبل الغروب. وفي هذه القرية تغيرت علينا المناظر وتغير الهواء. شارفنا تهامة وودعنا جبال اليمن العظيمة وأوديتها المخصبة الجميلة.

(راجع كتاب هرس — رحلته في اليمن — من صنعاء الى مناخة والى الحجلاء)

ان المستر هرس كتب كتابة شاعر حرأكت نفسه عظمة الجبال وجمال الاودية ومع ذلك فالمطلع على ما نقلناه عنه هنا تارة تلخيصاً وتارة ترجمة بالحرف تقريباً فانه يتصور صورة جلية تقرب من الحقيقة عن بلاد اليمن وجبالها وأوديتها وصعوبة مسالكها وحصانة مدنها وقراها. وبتبها لما جعلنا ما كتبناه الى الآن توطئة له من أهمية البلدان العربية في المملكة العثمانية الدستورية وأهمية اللغة العربية فيها اي في المملكة وموعدنا بكل ذلك الاعداد القادمة ان شاء الله

خاتم المارد وبساط الريح وقبع الاخفاء (١)

جاء في قصص الف ليلة وليلة وفي أخبار الملك سيف ذكر ثلاثة أشياء عجبية غريبة لما لها من الخواص والصفات الخارقة المعتاد الاول منها خاتم المارد ومن خواصه ان حامله اذا فركه بيده مثل أمامه مارد من المردة العظام يقول له ليك يامولاي ماذا تريد فان قال اريد طعاماً او شراباً او لباساً حضره له في الحال. او قال اريد ان تبني لي قصرأ تحيط به الجنات وتجري من تحته الأنهار وفيه احسن الرياش والاثاث وفيه العبيد والجواري على مراتبهم في الخدمة لم يلبث ان فعل له ذلك لا فرق بين ان يكون القصر في البر فوق مرتفعات التلال الخضراء او في البحر على شائكات الجزر الخضراء

والثاني بساط الريح ومن خواص هذه الاداة ان تقطع بصاحبها المسافات الشاسعة التي لا يمكن ان تقطع بواسطة أخرى فاذا ضرب بساط الريح صاحبه لباه المارد الموكل به يقول امرك يامولاي ماذا تريد فيقول مثلاً انقلني الى مدينة كذا الى قصر ملكها الى غرفة منامه فينقله بأسرع من لمح البصر. وقد يحمل بساط الريح صاحبه فوق بحار من الظلمات لا يهندي فيها او فوق اراض مسحورة يستحيل قطعها لولا هذا البساط وما له من الخصوصية الباهرة

الثالث قبع الاخفاء ومن خصوصياته ان صاحبه اذا لبسه احتقى عن الاعين فأصبح يرى ولا يرى. وربما باغته مبالغت من عدو مشاكس او سبع مفترس فيظن انه صار في قبضته لکن بينما هو ييسم ابتسامه المنتصر الظافر اذا بخصمه صاحب قبع الاخفاء قد غاب من امامه بفتة وبركة يحرق اسنانه من شدة الغيظ وحرارة الخيبة

يقولون ايها السادة والسيدات ان كاتب الف ليلة وليلة رجل حكيم عاقل اشبهه بالفياسوف يبدأ صاحب كتاب كليله ودمته. فبض حكاياته وان ظهرت للعامة بمظاهر اللهو والحرافات يقرأونها ترويحاً لنفوسهم ومجارة لاهوامهم وتخيلاتهم هي عند التحقيق يشار بها الى حقائق حقة وعادات مرعية وآداب متبعة

وأحق قصصه بالتفسير والتأويل خبر هذه الاشياء العجيبة فانه لم يرم بها على الخيل ولا اراد بها مجرد ايها الجمهور وترويض تخيلاتهم تمريناً لها على قبول الغرائب والمستحيلات

(١) خطبة الامام الفخر رطوط اثناء العربية في المدرسة الكلية السورية الانجيمية في بيروت القاها في مدرسة البنات الاميركية في حفلة اعطاء الشهادات

الحوارق كذا يقول كثيرون من جلة أهل العلم والنظر على ما سمعت فأرجح من ثم انه أشار بهذه الادوات الثلاث الى معان وظواهر لاريب في وجودها تطبيق اوصافها على اوصاف هذه الادوات

دعونا اذن ننظر في تأويل هذه الادوات وبيان ما تشير اليه. اخاف ان تهزأوا بي ايها السادة والسيدات وتعدوه من السخف ان تؤول هذه الاقاصيص كما تؤول كتب الحكمة والفلسفة . وقد لا يبعد ابتداء ان تقولوا في سرهم ماذا أصاب هذا الرجل . متى خولط في عقابه . الخاتم المارد وبساط الريح وقبح الاخفاء تشير الى حقائق معنوية وجودية . ما سمعنا بهذا من قبل . بل غاية ما نظنه انها من خرافات الخيلة وهو الحديث . وانسكتة فيها إن كان فيها نكتة إنما هي غرابة تصور كاتبها وبعد تخيلاتة . لا تتعجلوا في الحكم ايها الشبان الادباء والسيدات الادبيات ولا تظنوا بي الظنون ايها الفضلاء والعقلاء . انما ارعوني سمعكم قليلاً وليس معنى حكمكم وصبركم بضع دقائق فأبين في خلالها مغازي ما يراد بهذه الادوات العجيبة

خاتم المارد على ما بظهر من القصة واسطة بين من يحصل عليه وبين المارد اي بينه وبين قوة عظيمة موجودة غير منظورة . وكذلك بساط الريح وقبح الاخفاء . افرك خاتم المارد بيدك فيحضر المارد بين يديك يقول اطلب ما تشاء احضره لك باسرع من لمح الطرف . اضرب بساط الريح بالعصا التي أعطاكم المارد فيخف المارد لاجابتك ويحملك الى حيث تشاء ويقطع بك مسافة لا يمكن ان تقطعها بدونه . البس قبح الاخفاء فيحضر ذلك المارد وبقوته الخاصة يرد العيون عن ان تراك ويقيك المكائد والاضرار التي لولاه لوقعت بك . ترون اذن من القصة ان المارد الذي يمثل بين يديك لخدمتك اذا فركت الخاتم هو نفس المارد الذي يحملك على بساط الريح ويقطع بك المسافات التي لا تقطعها بدونه وهو الذي اذا لبست قبعة يواريك عن عيون الاعداء ويقيك المكائد والاضرار التي كانت لتقع بك لولا وقايتة

وعليه فالخاتم والبساط والقبح انما هي أسباب محسوسة اذا امتلكت امتلك بامتلاكها قوة عظيمة جداً يعبر عنها بمارد فيكون طوع إرادتنا نحضره عند الحاجة ونصرفه عند الاستغناء عنه . فضلاً عن كون هذه الادوات اسباباً اذا حصلنا عليها حصلنا على القوة هي أيضاً عبارة عن ثلاثة انواع من الخدمة التي بصرف المارد في قضائها لا تتشوف النفس الى أكثر منها . لي بعد شيء أقوله وهو اذا قرأتم الفصحة وأمعتم النظر فيها جيداً ترون الكاتب لم يفغل عن ان يلح الى ان هذه الادوات والاسباب المحسوسة يمكن ان يفقدتها

صاحبها واذا فقدتها فقد مع فقدانها قوة المارد أيضاً مع انه يبقى هو هو
أرى وقد قلت ما قلته ان مغزى القصة لا يصعب بعد فهم المراد منه فان المارد عبارة عن
قوة حقيقية وجودية كنى بها صاحب القصة عن قوة العقل البشري وهذه القوة هي من أعظم
القوات الطبيعية في هذا الكون وما سواها من القوات خاضع لها لا يقوى على معارضتها
فاذا سلمنا بذلك لم يبق شك في ان الادوات الثلاث يراد بها الاسباب المحسوسة التي اذا حصلنا
عليها كانت القوة العاقلة قوة العقل البشري في ملكنا ووطوع ارادتنا نستطيع التصرف بها في
ما نشاء وعلى ما نشاء . والاسباب المحسوسة التي بامتلاكها تتمكن من امتلاك قوة العقل هي المال
في مظهره المعروفة . فالمال اذن هو المراد من خاتم المارد وهو المراد من بساط الريح وهو
هو المراد من قبع الاخفاء . افركوا المال بأيديكم افركوا هذه التي يقال لها الليرات الانكليزية
او العثمانية او الفرانكوية فيقول لكم المارد أعني قوة العقل الانساني لييك لييك ماذا تريد .
قولوا لهذه الليرات صيري طعاماً أو شراباً فتصير . قولوا لها صيري اثاثاً ورياشاً وزينة فتصير .
قولوا لها صيري قصوراً تناطح السحاب وفيها العبيد والاماء والجواري والخدم والحشم على
مراتبهم فتصير . قولوا لها صيري حدائق وجنات تجري من تحتها الانهار فتصير . قولوا لها
صيري مركبات وخيولاً وحراباً وبنادق ومدافع فتصير . قولوا لها صيري جيوشاً جرارة
لا يعرف أولها من آخرها وازحفني على الصين والهند وقلب افريقية واخضعي تلك البلدان
او عمري تلك المجاهل واستخرجي ما بها من الخيرات والكنوز الطبيعية فتقطع صاغرة .
قولوا لليرات صيري مدارس ومعابد صيري ملاجئ للفقراء ومستشفيات للمرضى صيري سككاً
حديدية ومعامل صناعية وتلفرافات وتلفونات ومراكب شمراعية وبخارية بل قولوا لها صيري
ما يمكن ان يخطر لكم ببال مما في قوة العقل البشري ان يوجد فتصير بالحال الى ما أردتم
فالمال اذن هو خاتم المارد الذي عناءه صاحب القصة وهو أمر حقيقي وجودي لا مجرد اوهام
وتخيلات يحلم بها الجاهل ويتفكك باستحالتها العاقل . تقولون لي فهمنا تأويلك لخاتم المارد وهو
تأويل حق لا يستطاع انكاره لان المشابهة ظاهرة اتم الظهور لسكن كيف تؤول بساط الريح
قلت اليس المارد الذي يحضر عند فرك الخاتم هو نفس المارد الذي يحضر عند ضرب بساط الريح .
فاذن ليس بساط الريح الا نوع خدمة مختلفة في الاعتبار فقط عن خدمة الخاتم وعليه فلننظر في
خصوصية هذه الخدمة وفيما اذا كان يمكن تطبيقها على خدمة اخرى من خدم المال . بساط الريح
يقطع بصاحبه على ما في القصة المسافات المسحورة التي لا تقطع بدونه . كذلك المال يقطع
بصاحبه مسافات مراتب الهيئة الاجتماعية المسحورة التي لا يمكن ان تقطع بدونه . أي مسافة
ابعد من المسافة بين رتبة العامة ورتبة الخاصة ؟ ام اي مسافة اشد هولاً من المسافة التي بين

رتبة الصعاليك الفقراء ورتبة الامراء؟ هذه المسافة هي المسافة المسحورة وكل رقي وطلاسم التراتيب البشرية مقامة على ابوابها تمنع من تجاوزها وتخطر على غير اهل الرتبة ان يصلوا اليها . قولوا لي متى كان يستطيع الفقير السوق ان يقطع المسافة التي بينه وبين الاعيان من الكبراء والعلماء والامراء . مازالت هذه المسافة ولن تزال بعيدة مسحورة لا يستطيع قطعها الا بهذا البساط « بساط الريح » الذي هو عبارة عن المال الكثير ورمز اليه لاترغموا ايها السادة ان كلامي على سبيل المبالغة والتحويل . انظروا الى الانكليز وهم من ارقى الشعوب المتمدنة في الحال فان بين سوقتهم وبين خاصتهم من التباين والتباعد ما لا يعرفه الا من خبر القوم وعرف عوائدهم . فان الخاصة يرون من أكبر العار عليهم ان يخاطبوا السوق او يجالسوهم في حال من الاحوال . لكن هؤلاء السوق اذا حصلوا على الغنى فتح لهم الخاصة من الاعيان والكبراء والعلماء والامراء صدورهم وقصورهم ومنتدياتهم على اختلاف انواعها . وبعبارة اخرى نقول ان الغنى يمكن اهله عند هذه الامة العظيمة من قطع مسافة رتبهم الاجتماعية مهما كانت تلك المسافة بعيدة . واذا اغتنى الفقير بينهم امكنه ان يصل الى اعظم الرتب وأشرفها على حين كانت طريقها مسحورة عليه من قبل لا يستطيع ان يخطو فيها خطوة واحدة . هذه ايضا الامة الاميركانية والرتب الاجتماعية لا اثر لها في نظاماتها السياسية والقانون يصرح بتساوي كل فرد من افرادها في جميع الحقوق المدنية ومع ذلك لاغنيائها رتبة ممتازة لا يوصل اليها الا بالغنى . فرتبة او طبقة الاربعائة في نيويورك معروفة مشهورة وأهل هذه الطبقة على ما هو معروف مستقلون بمعاشراتهم وجمعياتها واجتماعاتهم ونيالي لهوهم ومسراتهم لا يطمع احد ان يشاركهم فيها او يصل اليها الا ببساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ انكلترا ترون انه كان بين عامتهم بوجه الاجمال من جهة وبين خاصتهم وأشرفهم من جهة اخرى مسافة مسحورة في الحقوق والامتيازات ما كان يستطيع قطعها بوجه من الوجوه لكن الفضل كل الفضل في ازالة هذه المسافة وفك طلاسم سحرها انما كان لبساط الريح اعني المال . راجعوا تاريخ الامة اليونانية فان حكيمهم الشهير صولون جعل التفاوت بين طبقاتهم على نسبة التفاوت في المال فجعل المال بساطاً يطير به صاحبه من رتبة الى رتبة اعلى منها الى ان يصل الى اعلى الرتب الممكنة . راجعوا تاريخ الامة الرومانية العظيمة فانها كانت تقسم الى طبقتين طبقة العامة او البلييان وطبقة الاشراف او البتريشيان وكانت المسافة بين هاتين الطبقتين مما لا يمكن تجاوزه الا ان بساط الريح مازال ينقل البلييان واحداً بعد الآخر الى طبقة البتريشيان حتى ازال طلاسم هذه المسافة وكسر ابوابها التي كانت تحول دون طاعتهم

ودون منزلة الشرف التي كانت لخاصتهم

بقي علي تأويل قبح الاخفاء وبيان المراد منه وأراني لا احتاج الى تعب في اقناعكم انه يرمز به الى المال ايضاً أما الصعوبة في بيان وجه الخدمة التي تقصد من قبح الاخفاء . على ان من راجع القصة وتأمل المنفعة التي كانت تحصل لصاحب هذا القبح رأى كل ذلك منطبقاً على القول المشهور وهو ان المال يسر معاييب صاحبه فلا يناله مضرة المذمة وقبح الاحدوث التي لا بد منها اذا ظهرت المعاييب وكثر تحدث الناس بها . هذا صاحب المال اذا كان جباناً واستحق المذمة على جبانته ستر المال هذه الخصلة فلم يظهر جيبه بل قد يعدون الحيانة منه تبصراً وروية واحكاماً في موضع الاحجام . وكذلك البخل فيه فقد لا يرونه منه بخلاً ويتأولون له مظاهر البخل انها مظاهر اقتصاد وحسن تقدير . وقس على ذلك سائر المعاييب فان المال يسترها على صاحبها فيوتى بذلك من المذمة والعار اللاحقين باهل هذه المعاييب

انظروا الى الحمقى من الاغنياء الطياشين الذين يجري على السنتهم ما يخطر في قلوبهم فان غالب الناس لا يرون ذلك حمقاً منهم ولا طيشاً أو تسرعاً يستوجبان التنقص والازدراء انما يحسبون ذلك لهم من باب حرية الافكار وبغض الرياء والنفاق . وبالاجمال فأكثر النقائص والمعايب التي تمتد على الفقراء والسوقة من الناس اما ان تخفى عن العيون فلا يرونها في الاغنياء اصحاب الاموال الكثيرة واما ان تثقل صفتها فيرونها فضائل فيهم وكالات . نعم هذا من شرور الغنى لا من منافعه ولكنه خدمة من خدم المال لصاحبه تمنع العيون من رؤية مقابحه وتقيه شر تبعثها فيما لو ظهرت في مظاهرها الحقيقية

لا احتاج ان اذكر لكم كل انواع الوقاية التي يقبها المال اهله والاضرار التي يصرفها عنهم مما هو مشاهد من الوقائع الكثيرة والحوادث التي تعرفونها قديماً وحديثاً فانها من الكثرة ما لو اردت تعدادها لاقتضى لي في سردها ايام قبل ان آني على آخرها . انما يمكنني ان اذكر لكم ما يعرفه كل منا باختباره وهو انا في غيبة اصحاب المال نغضب من نقائصهم وأعمالهم الشاذة وتبلغ بنا الحدة الى ان لا نبقى ولا نذر في ثلبهم والتنقص منهم حتى يخيل للسامع اننا اذا التقينا بهم لا بصرفنا صارف عن تقريرهم بمعائبهم في وجوههم وايقاع كل نوع من الاذى والاهانة بهم لكننا اذا التقينا بهم ورأينا ابهة غناهم نسينا كلما قلناه فيهم وأخذنا في مجاملتهم والتناء عليهم على عكس ما ظهر منا في غيبتهم بل ربما نزيد في المدح والتلق لهم في حضرتهم اضعاف ما كان منا من ذمهم ومجافاتهم في الغيبة . ما الذي اوجب كل هذا التغير فينا . ما الذي اوجب كل هذا التفاضل بل ما الذي اوجب كل

هذا العمى والتعمي الغريب العجيب حتى انا لا زرى فيهم الآن شيئاً مما كنا نراه قبيل اجتماعنا بهم . ذلك لانهم يلبسون على رؤوسهم في بيوتهم ومجالسهم قبع الاخفاء وبعبارة اخرى ابهة المال وزخارفه فلانعود رى فيهم شيئاً من الممايب التي كنا نتهمهم بها . وهذا مساو لاختفائهم عن اعيننا وموافق كل الموافقة لمآل ما يذكر عن خصائص قبع الاخفاء لا يؤخذ نعلي من كلامي ان الاغنياء استحباب الاموال الكثيرة هم شر من غيرهم من بقية الناس حاشا . حاشا لله ان اتهمهم هذه التهمة التي يعيل الى ان يتهمهم بها كثيرون من المتفاسحين . بل الذي اعتقده فيهم انهم بوجه الاجمال خير مما يظن فيهم ومنهم من هو افضل الناس وأكرمهم نفساً وأسخاهم يداً وأحرصهم على نفع القريب ورفع شأن الانسانية . ولا أقول ذلك تزلفاً او لان قبع الاخفاء يمنعني الآن من رؤيتهم انما اقول الحق الواقع على ما اعتقد . والذي يتحصل من كلامي ان الهيئة الاجتماعية لا ترى من عيوبهم ما تراه من نفس هذه العيوب لو كانت في غيرهم . ثم هي لا تستطيع ان توصل اليهم الاذى الذي تستطيع ان توصله الى غيرهم من افرادها لا ان عيوبهم اكثر من عيوب غيرهم

ايها السادة والسيدات الكرام انتهيت الآن من تأويل المراد من هذه الادوات الثلاث التي وردت في بعض الكتب والتي يظن بها انها كتبت هناك لمجرد الفكاهة والاهو من غير ان يتوجه خاطر كاتبها الى ظاهرة من ظواهر القوات الطبيعية التي تؤثر في احوال المجتمع الانساني . والذي اقوله الآن انه ان سلم بهذا التأويل الذي اولته من انه يراد بالمراد قوة العقل البشري وأنه يراد ايضاً بهذه الادوات الثلاث المال في جميع مظاهره وأن الخواص التي نسبت اليها انما هي اشارة الى انواع الخدم التي يستطيع صاحب المال ان يستخدم العقل البشري من اجلها . ان سلم بهذه كلها فليس اذن شيء من المبالغة فيما ذكره صاحب كتاب الف ليلة وليلة ونسبه الى هذه الادوات . اي مبالغة في ان العقل البشري من اعظم القوات الطبيعية في هذا الكون . اي مبالغة في انه اعظم من القوة المغنطيسية وأنه اعظم من القوة الكهربائية او انه اعظم من قوة النور والحرارة ؟ بل هو اعظم وأقوى من جميع هذه القوات مجعة معاً لانه يعرف هذه القوات وهي لا تعرفه ويستطيع استخدامها بحسب ارادته ولا يستطيع هي ان تستخدمه . والى الآن فقد استخدم كثيراً منها وذلك حتى اصبحت طوع ارادته ياب بها كما يشاء . ولا شك ايضاً انه سيتمكن في المستقبل من معرفة خواص هذه القوى وتذليلها في قضاء حاجاته فوق ما عرف وما ذال منها الى هذه الساعة . ثم لما كان المال في ما مضى وسيكون في ما يأتي أشبه بالبطارية الكهربائية او القنينة اليدنية يذخر فيه من قوة العقل كما يذخر في تلك من القوة الكهربائية كان امتلاك المال عبارة

عن امتلاك تلك القوة العجيبة الغريبة اعني قوة العقل الانساني . اذن لا يستخف احد بالمال لان من استخف به فقد استخف بالعقل البشري وبثمرات العقل البشري . وليحرص عايه من هو في يده لان هذه الليرة مثلا ليست بعد ذهباً أي مادة جامدة ميتة بل هي بمثابة العقل أو الرجز الحي العاقل يخدمك بقوة عقله على نسبة ما هو مذخور فيها من القوة . ولذلك فربما تكون لك هذه الليرة عاملاً اعتيادياً يخدمك عشرين يوماً او صاحب احدى الصناعات المتعارفة كالنجار والبناء والحداد والحائك وغيرهم يخدمك اسبوعاً كاملاً من الصباح الى المساء وربما تكون حاسباً ماهراً او كاتباً بليغاً او طبيباً حاذقاً يخدمك كل منهم بما يساوي القوة المذخورة فيها من قوى عقله

ايها السادة والسيدات الكرام لو كنت على منبر الوعظ لقلت ما اقله الآن ان من يستخف بالمال يستخف بأعظم انعامات الله عليه . ومن ينفقه جزافاً في غير موضعه بخطيء ايضاً لانه لم يحسن استعمال ما خوله اياه الله . فللمال فانه وديعة الله عندنا كما ان العقل وديعته ايضاً وهو بعد الصحة من اعظم النعم التي ينعم الله بها على مخلوقاته . وصاحبه كان ولا يزال موضوع التجارة والكرامة بين اهله وقومه ومعاصريه له المقام الاول بينهم ان قال اصغى الناس لقوله او امر تبادروا الى طاعته . وعلى كثرة الاغنياء في الامة تتوقف عظمتها وارتفاع شأنها ونفوذ كلمتها واتساع متاجرها وامتداد سطوتها في المعمور . وعلى كثرة الاغنياء ايضاً يتوقف غالباً اتساع الامة في المبرات وأنواع الاحسان ورفع شأن الانسانية . فالمعابد العمومية والمدارس الكلية والمستشفيات للعرضى والملاجيء لليتامى وبيوت المعجزة كل هذه للاغنياء فيها اليد البيضاء والفخر الباقي مدى الدهر . وبالاختصار اقول ان المقام الاول في الهيئة الاجتماعية كان ولا يزال للمال ولاصحاب الاموال الكثيرة

ايها السادة والسيدات الواقع المشاهد بصدق الحكم الذي قلته من ان للمقام الاول في المجتمع الانساني انما هو المال ولاصحاب الاموال . وليس بعد الواقع المشاهد حجة لاحتج او تعليل لمتعلل ومع ذلك فتميزاً لما ذكرته دعوني اورد لكم في هذا الصدد كلام اعظم رجال انكلترا في أواخر هذا القرن اعني به اللورد بيكونسفيلد او المستر دسراييلي المشهور فانه في روايته المشهورة بتكرده وهي الرواية التي اودع فيها معظم فلسفته وأفكاره الخطيرة يورد مشهداً جرى فيه حديث بين اللورد تنكرد ابن دوق بلامنت وبين ابنة رجل من اغنياء الاسرائيليين فساق الحديث مساقاً جعل فيه الابنة تسأل هذا العظيم الانكليزي السؤال الآتي فتكرموا بالانتباه الى ما سأله هذه الفتاة

والى ما اجابها به الشريف الانكليزي مما يدل على رأي اللورد بيكونسفيلد واعتقاده .
قالت الابنة مخاطب اللورد تنكرد : ولكن ارجو من فضلك ان تخبرني لاي شيء المقام
الاول عندكم في اوربا . فصمت هنيهة ثم قال وقد احمرت وجنتاه خجلا يظهر لي ان المقام
الاعلى للمال . هذا هو رأي اللورد بيكونسفيلد وهو صريح لا يدخله شبهة ولا يقبل التأويل
بوجه من الوجوه في ان المقام الاعلى في اوربا بل وفي امريكا وآسيا وأفريقيا
وأستراليا إنما هو المال

قوة المال على نسبة كثرته وكثرته تتوقف على كيفية اكتسابه وانفاقه . اما اكتساب
المال فمطلوب منكم ايها الرجال لا من السيدات واكتسابه موقوف على النشاط والامانة
والاستقامة . يظن كثيرون انهم يحصلون المال بالاماني وهم نيام فيحترقون الصنائع
ويترفعون عن الاستخدام الا اذا كانت الخدمة شريفة كما يزعمون وشرفها بكثرة المعين
لها وربما صرفوا قبل ان يحصلوا على هذه الخدمة الثمينة السنين الطوال في الكسل
والنوم . فليذهب أمثال هؤلاء الى الولايات المتحدة وليتعلموا النشاط من تلك الامة
العظيمة فان رجالها لا تعرف معنى الملل ولا تشعر بالكلل وهم لا يحترقون صناعة ولا
يترفعون عن عمل مشروع . وجواب احد عظمائهم لمن عيره بأنه كان مساح احذية جواب
مشهور متعارف يفتخرون به ويعلمونه صيانهم في مدارسهم . وأما كيفية انفاق المال فهم
معرفة الرجال والسيدات ولا سيما السيدات . ايها الشبان في زمن شبابكم قبل ان تصيروا
أصحاب بيوت احترزوا كل الاحتراز كيف تنفقون ما تكسبونه من المال فانكم اذا كنتم
تنفقون اكثر مما تكسبون مسرعون الى الخراب والعار وكذلك اذا كنتم تنفقون ما
تكتسبون لا تبقون منه فضلة تذخروها . ايها السيدات بعد ان تصرن ربات بيوت احرصن
كيف تنفقن مداخلكن . على كيفية انفاق مداخلكن . يتوقف فضلكن وظهوركن
وظهور رجالكن في مظاهر الكرامة والاعتبار . على كيفية الانفاق يتوقف أيضاً مستقبل

اولادكن فاما ان يشبوا للنباهة وحسن الذكر او يعيشوا او يموتوا في الخمول والفقر
في كيفية انفاق المال تراعى امور كثيرة يستحيل علي ان اذكر الآن جميعها فأذنوا
لي اذن ان اذكر منها امرين احدهما ينبغي تجنبه والاخر ينبغي الاخذ به . تجنبوا اقول
ذلك للرجال عموماً وللسيدات خصوصاً تجنبوا البذخ . ومعنى البذخ ايها السيدات ان
تسكفن محاكاة من هن اغنى منكن في ما هو من خصائص طبقتن قطمحن الى مجاراتهن
في البيوت الواسعة والرياش الفاخر واستخدام الخدم والتأنق في اللباس والزينة واقامة
الولائم والحفلات . السيدة الفاضلة السيدة الكريمة التي هي اهل لسكل اعتبار وكرامة هي

السيدة التي تعرف درجة غناها وتدبر يديها بما تقتضيه الحكمة فتصرف النظر مطلقاً في جميع نفاقها عن ان تشبه بجاراتها اللواتي هن اغنى منها . السيدة الفاضلة تصرف النظر عن التشبه او البذخ لانها تعلم ان هذا التشبه يلحق بها الاستهزاء والسخرية اولا ويوصلها الى الحاجة والفقر ثانياً

لا يستطيع ايها السيدات ان اضح لكن قواعد للانفاق انهي في بعضها وأمر في بعضها ولا هو من خصائصي ايضاً بل كل سيدة ينبغي ان تكون هي الآمرة الناهية في بيتها لنفسها وفقاً لحكمتها . لكن مع ذلك لا يضر السيدة الفاضلة الحكمة ان تعلق في بيتها آية تذكرها دائماً ان تتجنب البذخ او التشبه الفارغ الذي يوصل الى الخراب اخيراً . هذا ما يجب على كل سيدة ان تتجنبه . وأما ما يجب عليها ان تمسك به وتعمل بموجبه فهو «حسن التدبير» وأريد بحسن التدبير ان تقدر السيدة بحسب حكمها المبالغ الواجب ان تنفقها والذي في طاقتها ان تنفقه من مدخولها . وعلى ما يقوله الحكماء الاقتصاديون لا ينبغي ان يزيد هذا المبلغ عن ثلاثة ارباع مدخولها في السنة او اربعة اخصاسه في الأكثر . ثم تنظر في الوجوه التي ينفق فيها هذا المبلغ من الطعام والشراب واللباس وأجرة البيت وبقية الثريات الاخر المتعددة التي تدخل في حساب نفقاتها فتصرف الى كل من هذه الوجوه من ذلك المبلغ الذي قلناه القدر اللائق به تجري في ذلك على نسبة معينة ثابتة لا تتجاوزها . فانها ان فعلت ذلك شملت السكينة بيتها وحل فيه السلام والمسرة والهناء . ثم لا يلبث ان يجتمع عندها من فضلات مدخولها الذي كانت تذرعه من سنة الى اخرى شيء يكون قوة لها وابيتها تستخدمه في كل مقصد شريف ومرضي لله والناس

ايها السادة والسيدات اردت بخطابي على طوله وعرضه ان اقول ما يقوله كل معلم من معلمي هذه الامة وكل معلمة من معلماتها لتلاميذها . بل اردت ايها السيدات نائلات الشهادة ان اقول لكن ما كان يقوله لكن معلماتكن الفاضلات صراحة او ضمناً بصريح القول او بحسن العمل والقدوة كل هذه السنين التي صرفتها تحت مناظرتهم وما آل هذا القول وخلاصته هو هذا . المال قوة . المال نعمة من أعظم نعم الله بعد الصحة فايا كن أن تحقره بانفاقه جزافاً او ان تمرين منه . اجتهدين في تحصيله كما مكنتكن الفرصة ومقتضيات الزمان والمكان من ذلك وايدلن دائماً جهدين وروبتكن في ان توفرنه بكل واسطة شريفة . لكن بقدر ما نوصيكن ان نحصلن المال وتوفرن المال نوصيكن ايضاً ان لا تعبدن المال لان عابد المال يخسر الدنيا والاخرة والسلام

اللغة العربية

ما أخذت وما أعطت

خطبة تأتت في السكينة الاميركية بيروت

ايها السادة لا بد لي اولاً من بيان ماهي اللغة العربية او ماهي خصائصها ومقوماتها قبل ان استطيع ابيّن على وجه مفهوم مقبول ما اخذت عن غيرها من اللغات وما اعطته لمن اللغة العربية نظير كل لغة من اللغات الحية المرتقية لا بد فيها من امور جوهرية لا يجوز اهمالها ولا الاخلال بها. وهذه الامور الجوهرية تبقى من جيل الى جيل لا تتغير في شيء عما كانت عليه انما تنمو وتتفرع تبعاً لتاموس الارتقاء بما يخيل معه لغير المارفين المحقق ان قد حصل فيها انقلاب وتغيير والحقيقة غير ذلك. فان اهمات هذه الامور الجوهرية او اُخِلَّ بها وقفت اللغة عن النمو او تراجعت الى الوراء وانحطت عما كانت عليه. ويتزايد التراجع والانحطاط على نسبة الاخلال بهذه الجوهريات او اهمالها والتشكيب عنها. وفيها ايضاً امور دعونا نسميها عرضية قد تكون اليوم ولا تكون غداً ووجودها اليوم ان وجدت لا يشين في عروبة اللغة ولا يزين كما ان سقوطها غداً لا يضر بكيانها ولا ينقص من حيويتها فهي منها اشبه شيء بالورق او بعض الفصون والزوائد من الشجرة الكبيرة. فكما ان بعض اوراق الشجرة اذا تساقطت او بعض اغصانها اذا تشذبت او تهدبت لا يضر بحيوية الشجرة ولا بسلامتها كذلك تلك الامور العرضية اذا تساقطت من اللغة اليوم او قطعت منها وطرحت غداً لا يضر ذلك بكيانها ولا تضعف معه حيويتها وبعبارة اخرى لا يتراجع نموها ولا تتشاحب اظلالها ولا يهازظ طعم بلاغتها وفصاحتها

لنسال الآن ماهي مقومات اللغة وبعبارة اخرى ماهي الامور الجوهرية فيها او الصفات الذاتية التي لا يستغنى عنها بل تبقى على مر الزمان فتشعب وتتكيف بما يناسب حياة اللغة وارتقاءها. واذا فقدت او اهملت ماتت اللغة او توقفت عن النمو والتشعب ثم هي في الوقت نفسه لا يصح استعارتها من لغة اخرى ولا يمكن ايضاً ان تستعار وتبقى اللغة هي هي

ايها السادة—ان مقومات اللغة او الامور الجوهرية فيها هي شيء آخر غير الفاظها

المفردة — لا فرق بين ان تكون تلك الالفاظ اسما او افعالاً او حروفاً ودليله ان هذه الالفاظ المفردة يمكن ان تستعمل اليوم وتهمل غداً كما انها يمكن ان تترادف وتتكثر حتى تستقل وتهجر . انظروا الى كثير مما عندنا في كتب اللغة من الاسماء والافعال مما هُجِر او استكروه وأهمل فانها تمدُّ بالثبات . وكثير من تلك الالفاظ ليس هو في الاصل من كلمات اللغة العربية انما هو من الفارسية او الرومية او الهندية استعيرت فاستعملت عند الحاجة وأهملت او أميتت عند عدمها — وتعلمون ان مقومات الشيء أو الامور الجوهرية فيه هي مما لا يفارقه وبعبارة اخرى هي مما لا يستغنى عنه حيناً ويحتاج اليه حيناً آخر . نعم ان كثيراً من اعراض الشيء قد تستمر مصاحباً له ولا يستغنى عنها بالفعل او في الخارج فهي من هذا القبيل كالمقومات له او كالصفات الجوهرية (اي الذاتية) منه . والفارق بينهما حينئذ انه يمكن فرض الاستغناء عن الاعراض ويمكن أيضاً تصور الاستغناء عنها وتصور مفارقتها لمصحوباتها ولا يمكن فرض الاستغناء عن المقومات ولا تصور الاستغناء عنها او مفارقتها لما تصحبه

استدركت ما استدركت لثلاثا يعترض علي ان كثيراً من الاسماء كالسما والارض والبر والبحر والجبل والوادي والشجر والحجر كانت ولا تزال في لغتنا العربية لم تهمل ولا يخال أن تهمل وما زالت في استعمال كل يوم وفي استعمال كل جيل من الاجيال التي عبرت ونعرفها فكأنما هي مما لا يجوز اهلها ولا يتصور الاستغناء عنها ومع ذلك هي الفاظ مفردة فكيف تكون من الامور المرضية في اللغة ؟ قات وأقول انها من حيث هي اسما مفردة ليست من مقومات اللغة اصلاً ويمكن الاستغناء عنها وانما استمرت في اللغة وفي استعمال كل يوم وكل جيل من أجيال اهل هذه اللغة لان مسمياتها مستمرة ومشاهدتها أي مشاهدة مسمياتها كذلك . وهذا ما يوهنا انه لا يمكن الاستغناء عنها

لا بد لي هنا من استيفاء المراد او الاطالة اذا شتمت هذه التسمية وإلا ظنَّ بي اني أريد ما لا اريده او اني أكتب ما لا أفهمه . أيها السادة . الفرق كبير بين قولنا اسم وهذا الاسم وفعل وهذا الفعل وحرف وهذا الحرف — فان الاسماء والافعال والحروف من حيث هي أسماء وافعال وحروف ضرورية في اللغة العربية وفي كل لغة أيضاً وهي من مقومات اللغة أو من الامور الجوهرية فيها ولا يمكن الاستغناء عنها حتى ولا تصور الاستغناء ولكن هذا الاسم وهذا الفعل وهذا الحرف يمكن تصور الاستغناء عنها وكثيراً ما يصحُّ الاستغناء عنها أيضاً

ظهر اذن لكم الفرق بين الضروري في اللغة وغير الضروري ورأيتم أيضاً الفرق

بين استغناء واستغناء وعليه فوجود الاسماء والافعال والحروف ضروري في كل اللغات المرتقية ولا يصح الاستغناء عنه (أي عن هذا الوجود) بوجه من اللوحية وأما كل لفظ من هذه الانواع الثلاثة لذاتها فيمكن الاستغناء عنها اجاباً

بقي لي شيء آخر أقوله وهو ان زيادة لفظه او بضعة الفاظ من هذه الانواع الثلاثة على اللغة قد يكون فيها أحياناً غنى للغة لا يُقدَّرُ قدره وقد تكون الزيادة لغوياً لا فائدة منها. والمحققون من اهل الذوق يعرفون الفرق بين زيادة وزيادة فيزيدون اللفظة التي تزيد في غنى اللغة وانساعها ويتجنبون ما زيادته لغو لا فائدة منها - مثاله ان زيادة مترادف من الاسماء الموصوفة او من الصفات كزيادة جوشن مثلاً بمعنى صدر او درع وتسمى ذرع بمعنى شجاع اوسيف وسمسان وسمسماني بمعنى خفيف لطيف فانها زيادة قلما تنتفع بها لقلة ما نحتاج اليها ولذلك فاستعمالها في كتابتنا او استمارة لفظه مثاها او معناها من لغة أجنبية لنستعملها في متاد استعمالها هو في حكم اللغو والمكروه ويجب تجنبه بخلاف زيادة أو ادخال مثل الالفاظ الآتية وهي عـلـوآء - وما شاء الله - ويلة - - وكان - وهاي هاي - وهاي ليصه - وبراؤفان في زيادة مثل هذه الالفاظ في أحاديثنا وكتابتنا الادبية محلاً للفكرة والنظر على ما أظن وذلك لانها لا تغير من جوهر اللغة وفي الوقت نفسه الحاجة ماسة اليها بدليل كثرة استعمالها وجريانها على لسان العامة منا والخاصة في الشام ومصر والعراق حتى وفي الحجاز ومجد على ما أظن

ذهب بي الاستطراد الى اكثر مما أردته فحال دون ما أريد الى بيانته وتمكينه في الذهن وهو ان الالفاظ كل لفظه بعينها سواء كانت اسماً او فعلاً او حرفاً ليست من الامور الجوهرية في اللغة وبعبارة اخرى ليست في عمود اللغة ولا في مقوماتها فتفسد زيادتها اللغة اذا زيدت عليها او يتهدم بنائها اذا اهملت أو اطرحت منها

ومثل الالفاظ المفردة في انه ليس من مقومات اللغة ولا من الامور الجوهرية فيها تفسيرات الاعراب في اواخر الكلم العربية ولا سيما التي ورد فيها مذاهب مختلفة. ودليلنا انوقف فانه جائز كثير الاستعمال شائعه قديماً وحديثاً لم ينقل عن نحوي قط انه منع جوازه. والوقف هو تعطيل الاعراب وازالة حكمه بتاتاً ويستحيل او اقله يمتنع ان تعطل مقومات الشيء او يزول حكمه لان ما يعطل او يجوز أن يعطل وزول أحكامه عن شيء لا يجوز أصلاً أن يكون من مقومات ذلك الشيء او من جوهرياته

الاعراب أيها السادة من اعراض اللغة العربية المضرية وأكثر ما نقول فيه انه بمنزلة العرض العام لا من الصفات الذاتية ولا من مزاياها الخاصة بدليل وجوازه في غيرها

من اللغات العربية كاللغة اليونانية واللاتينية . وهو في كثير من المواقف زينة في اللغة لا غير الا انه قد يكون أحياناً مساعداً على الفهم ومنع الالتباس وحكمه حينئذ حكم القرائن المختلفة التي تساعد على سهولة الفهم وصرف المعنى الى ما يراد . ولهذا لا يجوز الاستخفاف به دائماً لكن المغالاة به حيث لا تصح المغالاة ضرب من أزال الشيء فوق منزلته وحسبان الخادم في كثير من المواضع مخدوماً وسيداً . وبالأجمال أقول ان المغالاة فيه التي هي في غير موضعها ضرب من السخف المضر . وأضر ما تكون اذا كانت احكامه خارجة عن القواعد الكامية المساعدة على فهم المعنى المراد وداخلة في ما تعمق به بعض اصحاب المذاهب الذين خلطوا فأدخلوا كثيراً من احكام علوم الكلام والفلسفة والحظ في احكام النحو والاعراب مع بعد ما بينهما

ومن قبيل الالفاظ المنفردة واعراب او آخر الكلم الهيئات التركيبية فانها اي الهيئات التي تتعلق بها فصاحة المركبات وبلاغتها حكمها حكم الالفاظ المفردة بمعنى انها من حيث هي ترايب فصيحة او بليغة لا بد من وجودها في اللغة . ولكن هذه الهيئة او هذا التركيب بهذه الالفاظ قد يسقط من اللغة او يزداد عليها مثله فلا يهدم سقوطه اركانها ولا تفسد بلاغتها زيادته او زيادة مثله عليها

وصلت الى نقطة لا اراني استطيع تركها من غير ان ابسط الكلام فيها شيئاً وهي :- يزعم كثيرون من اهل العربية ان الهيئات التركيبية فيها محصورة وهذا وان لم يقوله صراحة يقولونه ضمناً . واذا كانت الهيئات التركيبية محصورة اذن لا يجوز الخروج عنها لان الخروج عنها خروج عن الفصاحة والبلاغة . ولما كانت الفصاحة والبلاغة من الكلام بمنزلة الكرم والشجاعة والعفة من الصفات الفاضلة كان التركيب الذي يعرى من هذه كالشخص الذي يعرى من تلك . وفي هذا القول كثير من الحق والصواب وكثير من الباطل والخطاء

اما الحق والصواب ففي ان الهيئات التركيبية اذا ختمت من الفصاحة والبلاغة خرجت عن ان تكون اجزاء لغة راقية ومسخت اللغة عن صورتها العاقلة الادبية الى ما هو دون ذلك وأما الباطل والخطاء ففي امور كثيرة توهم . منها

(اولاً) ان الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة محصورة وأنها محصورة في الترايب التي وصلت اليها عن العرب في نحو من مئتي سنة على الاكثر . فان هذا مما لا يقول به صاحب روية . وهو وان كان ممكناً ان يكون عقلاً فلا يمكن ان يكون وجوداً لان البلاغة تقتضي المطابقة لمقتضى الحال ومقتضى الحال يختلف باختلاف الزمان والمكان وباختلاف

المخاطب والمخاطب واختلاف احوالهما، واختلاف الزمان والمكان مضافاً اليه اختلاف التكلمين واختلاف افكارهم ومشاربهم وقوى عقولهم يتولد عنه من الصور ما لا يقع تحت حصر وجودي . ثم على فرض انه يستطاع حصر الهيئات التركيبية الفصيحة والبليغة بعدد معلوم فهذا العدد يتجاوز المئات وربما يجاوز العدد المركب منها . وهذا العدد من هذه الصور والهيئات يستحيل على العقل الانساني الاطاحة بتصوره في زمان من ازمته المحدودة . والحصر الفعلي الذي يترتب عليه فائدة لا يكون الا اذا احاط الفكر بالتصور ونحله جميعه دفعة واحدة او ما هو من قبيل الدفعة الواحدة

(ثانياً) ان تكون الهيئات التركيبية المعلومة علماً اجمالياً عند ادباء العربية مما اودعته اسفار الادب ودفاته كلها فصيحة بليغة فان ذلك مما يصعب التسليم به . وأكثر من ذلك ان تكون الهيئات التركيبية المنقولة في كلام من كانوا قبل الاسلام افصح وأبلغ من هذه الهيئات المنقولة عن أمثالهم في صدر الاسلام وبعده الى عصرنا الحاضر . فان هذا الخطأ شائع متداول وأكثر ادبائنا والمشغولين بعلوم البلاغة منا قديماً وحديثاً كأنما هم يذهبون اليه فيرون في الهيئات التركيبية والمركبات المنقولة عن اصحاب المعلقات وغيرهم ممن سبقهم او عاصرهم — فصاحة وبلاغة لا يرون مثلها لمن جاء بعدهم من مولدي الاسلام ومولدي مولديهم . بل كثيرون على ما يخال يذهبون الى ان جميع ما نقل عن الجاهلية فصيح بليغ بلا استثناء وهذا وهم فاضح ومن الاسف انه شائع مقبول عند الكثيرين من غير تجريح ويكاد الاقلون ممن يرتابون بصحة هذا الزعم لا يجسرون ان يرفعوا اصواتهم في نفيه او الاعتراض عليه انما هم يتهامسون به همساً فيما بينهم

(ثالثاً) من الخطأ ايضاً ذهاب كثيرين الى ان الفصاحة والبلاغة درجة واحدة وهذه الدرجة يرونها في هذا النوع من الكلام الذي يهيج من حاسة الاستحسان وما ناسبها او من حاسة الاستهجان وما ناسبها . فان رأوا مبالغة قد تخرج عن حد المقبول أو رأوا تشبيهاً أو استعارة في مدح ممدوح أو ذم مذموم أو في نخر أو في نسيب أو في حكمة وجاء شيء منها في شيء من الغرابة المقبولة اكبروا ذلك وظنوا ان هذا الذي اكبروه انما جاء من قبيل بلاغة الهيئة التركيبية . وقد لا يكون هناك فصاحة ولا بلاغة في التركيب تدعو الى مثل ذلك الاستحسان بل الاستحسان انما كان لتلك المبالغة او الاستعارة او لذلك التشبيه وما صحب المبالغة من الغرابة او صحب الاستعارة والتشبيه من الغرابة والمطابقة . والمحققون على ان بلاغة التركيب قد تكون ولا يكون هناك استعارة ولا تشبيه وقد تكون ويكونان معاً ولكنهما متمايزان في نفسيهما كل التمايز وان خفي

ذلك على كثير من البلاء بالفطرة او المتبافين . وهذا الخلط بين حسن الاستعارة او التشبيه وبين بلاغة المركب والتركيب كان فاشياً في ايام الامام العلامة الجرجاني صاحب كتاب اسرار البلاغة وكان يؤله أيضاً

والخلاصة ان ما يقتضيه به من ان هذه التراكيب والهيئات التي جاءت في كلام الجاهلية هي التي بها قامت قومات اللغة العربية وتفوقت على غيرها من اخواتها الساميات وعلى غيرهن من اللغات الاخرى هو مجرد تشييع يقول به اقوام قلوا او كثروا ولكنهم عار من التحقيق . فالبلاغة غير منحصرة في جيل دون جيل ولا هي أيضاً خاصة بزمان دون زمان ولا يمكن دون مكان وان اختلفت وتباينت باختلاف الزمان والمكان . وعليه نقول ان امرأ القيس كان بليغاً في عصره وكذلك كان جرير والفرزدق والاختل في عصرهم وكذلك كان ابو نواس وأبو تمام والبحتري كل في عصره شاعر بليغ الا ان بلاغة جرير والفرزدق قد تكون في نوعها غير بلاغة ابي تمام والبحتري كما لا يبعد أن تكون بلاغة هذين غير بلاغة المتنبي وغير بلاغة ابي فراس الحمداني — تكون غيرها ولا تكون اعلى درجة منها — وهكذا يقال في بلاغة امرئ القيس وغيره من اصحاب المملكات انها غير بلاغة ابي نواس او ابي الطيب المتنبي ولكنها وان كانت غيرها قد لا تكون اسمى منها . ولا دخل في ذلك لتقدم زمان امرئ القيس ولا لتأخر زمان المتنبي بل بلاغة المتنبي قد تكون اعلى وأوسع من بلاغة امرئ القيس (وهي كذلك) تلي نسبة ما كانت مدارك هذا اعلى من مدارك ذاك — وما قلته في المتنبي وامرئ القيس اقول مثله في ابي نواس والبحتري فانها وان تأخرا عن جرير والاختل في الزمان فقد تقدمتاها في البلاغة وان كان الاولان اقرب الى مناحي البداوة والثانيان الى مناحي الحضارة

لكن يقول قوم ان امرئ القيس يستشهد بكلامه في اللغة والاعراب ولا يستشهد بكلام المتنبي وكذلك يستشهد بكلام الفرزدق والاختل ولا يستشهد بكلام ابي تمام والبحتري . ويستتجرون من ذلك ان امرأ القيس ابلغ من المتنبي والفرزدق والاختل ابلغ من ابي تمام والبحتري . والاستطراد الى الرد على فساد هذه المزاعم وأشباهاها يخرجني الى ما لا يحتمله المقام فأجتري بسرد القصة التالية

حكى ان ابن الأنباري دخل على قوم فأشده بعضهم قصيدة لابي تمام واسمها المنشد الى أحد شعراء الجاهلية فطرب لها ابن الأنباري وأمر كاتبه ان يودعها في دفاتره فلما أتى الكاتب على آخرها قيل له هي لابي تمام قال فقال ابن الأنباري — « من أجل هذا رأيت أثر الركافة عليها — خرق يا غلام خرق خرق » . وكنت أحب ان اتقل القصة بحروفها

كما قرأناها ولكني أنسيت الكتاب الذي قرأتها فيه وبقي في ذهني ان الكتاب من الكتب التي يعتمد على صحة روايتها (١)

ولا اقول ان هذه الفكرة عمت بدون استثناء ولكن اقول ان الكثيرين أخذوا بها في الاجيال التي مرت قبلنا فغلب رأيهم على رأي المحققين من العقلاء في كل جيل الذين كانوا يقولون ان اللغوي شأنه أن ينقل ما نطقت به العرب ولا يتعداه وأما النحوي ف شأنه ان يتصرف فيما ينقله اللغوي وبقيس عليه « المزهر جزء اول وجه ٣٠ طبعة بولاق » ترون أبا السادة اني لا أحسب الالفاظ المفردة من حيث هي الفاظ مفردة ولا الحركات الاعرابية ولا كثيراً من المذاهب والتعليلات الصرفية والنحوية من مقومات اللغة العربية ولا من القفييات التي امتازت بها فسكانت سبباً لتفوقها على كثير غيرها من اللغات الراقية ولا أذهب أيضاً الى ان بلاغة الجاهلية جوهرية في اللغة العربية حتى اذا خرج الكتاب عن محاذاتها والصوغ على قوالها الى ما ندعوهم اليه أذواقهم وتخييلاتهم فسدت اللغة العربية وانحطت رتبها العالية بين اللغات المرتقية وانحط أهلها أيضاً تبعاً لانحطاطها . بل اعتقد ان بقاءنا على تحدي بلاغة الجاهلية وتوخها في كتاباتنا لا يجوز لنا ولا يكون بلاغة أيضاً الا اذا كانت عقولنا ومدركاتنا وبالتالي عاداتنا ومألوفاتنا الاجتماعية الحسية والادبية شبيهة تمام المشابهة بما كانت عليه عقول الجاهلية ومدركاتها وطاداتها وسائر أحوالها الاجتماعية . لان البلاغة عند التحقيق تقوم بانطباق الصورة الكلامية الخارجية على الصورة الداخلية الذهنية . ولا شك ان الصورة الذهنية لقوم أو لجيل من الاجيال في زمانين متباعدين لا بد أن يقع فيها تغير يقل او يكثر على نسبة ما يقل الاختلاف او يكثر بين ظواهر تمدن الجيل في ذينك الزمانين . فان بقي التمدن واحداً (اي جميع المظاهر الاجتماعية الخارجية وما دعا اليها من الاستعداد العقلي والديني والادبي) بقيت الصورة الذهنية لاهل الجيل في الزمانين واحدة وبالضرورة تبقى او بصح ان تبقى الهيئات التركيبية البليغة واحدة عندهما والا فلا . اذن فالذين يريدوننا على تحدي بلاغة الجاهلية او توخها لا تخرج عنها في شيء كأنما هم يقولون لنا ان افكاركم وتخييلاتكم ومدركاتكم ومعلوماتكم لا بل ومخيطاتكم الاجتماعية هي وافكار الجاهلية وتخييلاتهم الخ شيء واحد . ان كان يدنسكم من بسلم بصحة هذا فليتحده وليتوخ بلاغة امرئ القيس والحارث بن حلزة والاعشى وغيرهم وليحذو حذوهم

اذا لم تكن الالفاظ المفردة ولا الجمل المفردة ولا علامات الاعراب ولا هذه الهيئة

(١) ملاحظة اظن تلك الحادثة عن ابن الأعرابي لا ابن الانباري

التركيبية او تلك بينها من مقومات اللغة العربية ولا من صفاتها الجوهرية الثابتة والتي ينبغي أن تثبت وترقى وتتكيف مع الايام فإما هو اذن ذلك الشيء الذي تميزت به العربية وجعلها تتفوق على غيرها من اللغات ولا يزال باقياً بل وينبغي ان يبقى لا يتخلق جديته مع الايام. والجواب على ما ارى. هو الاشتقاق والقياس. الاشتقاق على ما ينبغي ان يفهم منه والقياس على ما ينبغي ان يفهم منه في كل انواعه وفي كل نوع من انواع الكلام العربية والدخيلة العربية ايضاً ان كانت

ايها السادة ان الاشتقاق ضروري في كل لغة لا تستقل لغة عن غيرها الا به ولا تترقى الا به فان استقلت وترقى استقلت اللغة عن غيرها وترقت وان تميزت الاشتقاق وانفردت في كل لغة من لغتين تميزت اللغتان وانفردت كل منهما عن غيرها والا فان تشابهها واشتركت تشابهنا واشتركتنا. مثاله اللغة التركية فانها على كثرة الالفاظ المفردة المستعارة من العربية وعلى كثرة الجمل النامة المأخوذة كما هي منها اي من العربية لا تزال لغة مستقلة عن العربية متميزة عنها تمام التمايز. ان في التركيبة ماثات وألوفاً من الالفاظ العربية كما ان فيها ماثات وألوفاً من العبارات والجمل النامة المستعارة رأساً من تلك اللغة يعلم ذلك من يعلمه ومع ذلك هي في غاية البعد والتمايز عن اللغة العربية بخلاف العبرانية فانها مع بعدها بحسب الظاهر عن العربية حتى يخيل للناظر ان التركيبة اقرب منها اليها بمرات فمع ذلك هي والعربية اختان بينهما من المشابهة والاشتراك في الخصائص والصفات الشيء الكثير كما يعلمه علماء اللغات المحققين الذين يؤخذ بقولهم وكل ذلك لاشتراك الاشتقاق وقرب شبهه في الواحدة بما هو عليه في الاخرى

الاشتقاق في كل لغة هو الامر الجوهري فيها. هو عماد اللغة وأقوم مقوم من مقوماتها. وبعبارة اخرى هو حياتها وعليه يتوقف ارتقاؤها او انحطاطها. تقدمها او تأخرها. واذا اردنا التمثيل قلنا هو من اللغة كالحيوان او الناطق في تحديد الانسان بل ربما هو اكثر من ذلك وقد لا يخطيء من يقول ان اللغة هي الاشتقاق. الفاظ اللغة تموت وتحيا اي يهمل استعمال بعضها وتموت ويستجد استعمال اخرى فتحيا ولا يمضي زمان يذكر إلا ويموت كثير من الالفاظ في كل لغة ومن بينها العربية ويحيا كثير ايضاً. واللغات النامية المرتقية هي ما كانت مواليد الفاظها اكثر من وفياتها. والعامل المتأمل يعلم ان كثرة مواليد الالفاظ وقلتها في اللغة يتوقف على الاشتقاق فان كان الاشتقاق مرتقياً نشيطاً كثرت مواليد وعاشت وإلا قلت وماتت. وعليه فأرقى اللغات وأكثرها حياة هي ما كان الاشتقاق فيها اتمّ منه في ما سواها داخل في كل فرع من فروعها

فمن باب القياس اي تقول داورة قياماً على حاسننه وسائرهُ وقاعدته وقاومه ونازعه
الحديث وأشياء هذه

بل لا نعدم من هذه الفئة كثيرين يرون في قولي قبيل الآن — وبصرخون بالتويل
والتبور اذا رأوا من يقول — افساداً للغة ليس من ورائه افساد لاني استعمت رأوا
من يقول — بدلاً من سمعوا من يقول — يزعمون اخذاً بالظاهر القريب ان رأى
لا تقوم مقام سمع

أيا السادة والاخوة الكرام ان سرّاً تفوق اللغة العربية وأنها من اشرف اللغات
القديمة والحديثة وأنها احق لغة بأن نحيا كما قال بعض علماء الاميركان المحققين هو لانها
لغة باب الاشتقاق والقياس فيها واسع جداً لا يضيق عن أن يسع العقل ان يدخل منه
مهما طال قوامه واتسع صدره بل كل من الاشتقاق والقياس فيها يفسح مجالاً للعقل ان
يدخل منه الى باحات هذه اللغة الشريفة وأن لبس قلنسوة اطول من قلنسوة ابي دلامة
او جبة اوسع من جبة ممدوح ابي تمام الذي يقول فيه

غمر الرداء اذا تبسم ضاحكاً غلقت لضحكته رقاب المال

فيا لله اذن من كثيرين ممن يدعون حباً هذه اللغة الشريفة ولكنهم يحظرون على
العقل ان يزورها في الاحايين حتى ولو كانت زيارته اماماً واطلالاً من باب دارها الخارجي
واطالما كان قبل عهدهم في ايام الجاهلية وصدر الاسلام يزورها غير معارض فيدخل كل
مخدع من مخادع مشتقاتها وكل عطفة من عطفات قياسها يأمر وينهى بما يقتضي
لا يضيق ولا يمت

أيا السادة اما الآن وقد فششت كربى من بعض هؤلاء الذين يحبون اللغة العربية
يزعمهم ولكنهم يعملون على اماتها ولا يعلمون فأقدم الى بيان ما هو عليه الاشتقاق من
الاتساع في هذه اللغة السيدة بين اللغات وما يزيد اتساعه في غنى اللغة ويهون على الشعراء
والكتاب في ابراز ثمرات عقولهم وايداعها في احسن قوالب النثر والنظم . والاشتقاق
منه في الاسماء ومنه في الافعال فلنبداً بالاشتقاق في الاسماء

ان المصدر نيفاً وثلاثين صورة فيما اعلم ومن اقربها وأكثرها استعمالاً الاوزان الآتية
وهي وزن فَعْلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ وفَعَّلٌ
وفِعْمُولَةٌ وفِعْمَلانٌ الخ . وكل هذه الصور تأتي أيضاً لاسم المصدر فضلاً عن غيرها
من الصور الاخرى

ومثل المصدر الصفة فان لها من الصور ما يزيد عن صور المصادر او يساويها على

الاقبل ومن تلك الصور وزن فاعِل وفَعِل وفَعَل وفعلان وفعل وفعل وفعل ومفعال ومفعلة وفَمَّال وفَمَّالة وفاعول وفاعولة ويفعل ويفعولة ويفمَّلة ويفمِّل ويفعلل وهلم جراً وهذه الاوزان هي التي يسمونها بالسماعية فيكون مصدر هذا الفعل على وزن او وزنين او اكثر من هذه الاوزان ومصدر ذلك على وزن او وزنين آخرين وهلم جراً . وهكذا الصفة فانها تكون من هذا الفعل او هذا الفريق من الافعال على وزن فاعل او فَعَل او فَعْلان وقد يكون لها صورتان او ثلاث صور او اربع وقد تبلغ من بعض الافعال الى الصور العشر وفي ذلك ما فيه من الغنى في المترادفات . وهناك أيضاً صوراً اخرى من باب السماعي للزمان والمكان واسم الآلة والمصدر الميمي لا احتياج ان اطيل عليكم بذكرها

بقيت الصور القياسية للمزيدات فان لكل مزيد من مزيدات الافعال الرباعية والخماسية والسادسية صورة معينة لكل من المصدر على انواعه والصفة على انواعها واسم المكان والزمان . وقد يكون المصدر صورتان قياسيتان كما هو معروف مشهور في وزني فَعَل وفاعل -- من منا لا يعرف ان الفعل استعان مثلاً يأتي منه الاستعانة والمستعان والمستعين والمستعان به مصدراً ومؤكداً وميمياً واسم فاعل واسم مفعول على الترتيب ومن قبيل الاشتقاق في الاسم الابواب الآتية وهي باب المثنى والجمع المكسر والسالم وباب النسبة والتصغير . والبايان الاخيران يلحقان بالصفة فيزيدان من غنى اللغة المعنوي وأما باب الجمع المكسر والسالم فيزيدان في مترادفات اللغة زيادة لا يعلم قيمتها المتعلم ويعلمها الشاعر او الناثر الساجع

نعم المتعلم يتبرم من ضوابط جمع التكسير التي وضعها الصرفيون لكثرتها وصعوبة حفظها غيباً ولكن الشاعر الذي يعلم ان جمع ظلّ ظلال وظلال وظلال وظلال يستفيد من هذه المعرفة وأياً فائدة فانه يمكنه ان يستخدم ظلال في قافية كقافية

بقاني شاء ليس هم ارحمالا وحسن الصبر زموا لا الجمالا
وظلول في قافية مثل قافية

في الحدان عزم الخليط رحيلا .طر تزيد به الحدود نحولا
وأظلال في مثل قافية

شرف ينطح النجوم بروقيه وعزّ يقلقل الاجبالا
وأظليل في مثل

بانت سعاد في العينين مملول من حبها وصحيح الجسم مخبول

وقس على ظلال وأظلال وظلول بحار وأبحار وبحور فان صور الجمع المتعددة والمجموع واحد تنزل منزلة المترادفات بل المترادفات قلما تتساوى في المعنى ولذلك قلما يتهيا للشاعر او للناثر ان يضع مترادفاً موضع صاحبه ولا يختل المعنى شيئاً بخلاف صور الجمع المتعددة فان كل صورة منها يصح ان تنوب مناب صاحبها وتوضع بدلاً منها من غير مخافة ان يختل المعنى المراد او يختلف عما قصد له بمقدار شعرة او ذرة

واذا علمتم هذا ان تعدد صور الجمع والمجموع واحد ليس هو تآليل في غصن الجموع العربية تشوّه كما يزعم بعض المتفهبين المقلدين من منظره وتخشّن مسه وتعوّج قوامه . بل هي غصينات الارز الجميل تزيد الغصن الاصيل جمالاً ورواءً وتجعل ظله النضير الرائع ظليلاً وارفاً

الاشتقاق في الافعال

في اللغة العربية اربع عشرة صورة وهي **أَفْعَلْ** و**فَعَّلْ** و**فَاعِلْ** و**تَفَعَّلْ** و**تَفَاعَلْ** و**أَنْفَعَلَ** و**أَنْتَمَلَ** و**أَفْعَلَ** و**أَفْعَالٌ** و**أَسْتَفْعَلْ** و**أَفْعَوْعَلْ** و**فَمَثَلْ** و**تَفَعَّلَلْ** و**أَفْعَعَلَلْ** وكلّ منها تأتي لعدة ممان . واشباع الكلام فيها لا يكفيه مجلد ضخم فأتى لي أن أتحيل تحيلاً أني استوعبت الكلام فيه بما يجلي لاذهانكم أهمية هذا الاشتقاق في العربية وأنها من هذا القبيل تفوق كل لغة من لغات الغربيين والشرقيين لا أستثنى لغة اصلا ومع ذلك يزعم بعضهم انها لغة ميتة او انها شاخت وقاربت الهلاك . كان البعض من متحمسة قتيان الاتراك يزعمون هذا الزعم ولا نلومهم لانهم يعرفون آداب اللغة الفرنسية اكثر مما يعرفون آداب لغتهم ولا نقول آداب العربية ومحسبهم الشديد كان للحالة الجديدة التي زعموا معها أن يوحدوا اللغة في كل الولايات الألمانية فيصبح العثمانيون كلهم يتكلمون لغة واحدة هي اللغة التركية كما يتكلم الفرنسيون والاميركان سكان الولايات المتحدة الانكليزية . ذلك صور لهم ما صور مما زعموا منه هذا الزعم الفاسد او تزعموه ولا نلومهم كما نلوم البعض او السكل من ابناء العربية ومحبيها ممن يسمعون ان لم يكونوا يعرفون ذلك عن علم ان لغتهم الشريفة اوسع اللغات اشتقاقاً وأكملها في ذلك حتى قال فيها بعض علماء الاميركان الاعلام كما المعنا سابقاً ونحب ان نكرره الآن انها اللغة الخالدة او اللغة التي هي احق اللغات بالحياة والبقاء . ومع معرفتهم هذه المعرفة يريدون أن يميتوا هذه اللغة الشريفة بسدّهم باب الاشتقاق وحظرهم استعماله اللهم الا فيما هو تافه او عديم الجدوى ويؤدي الى الخطاء . نلوم هؤلاء لانهم بمعظمون ما اشتق ويدكرونه

ومحقرين الاشتقاق وينسونه يعتبرون ما قيس ولا يعتبرون القياس . يحافظون على المولدات ولو كانت اجهاضاً او اصبحت هائم وقذاعيم ويهملون القوة المولدة ويعملون على اماتها فيالله منهم

ماذا اخذت اللغة العربية وماذا اعطت

وصت الآن الى موضوعي بعد ان مهدت له هذا التمهيد الطويل العريض والواقف عليه معي وقد ماشاني كل الطريق خطوة خطوة يدرك من غير عناء ان العربية لم تكن في حاجة الى غيرها من اللغات بفضل اتساع اشتقاقها وقياسيتها ووضوح المعنى المراد مما اشتق من الالفاظ وفقاً له سواء كانت تلك الالفاظ افعالا او اسما . فان من يعرف معنى القشعريرة يفهم حالا الفعل المشتق منها اعني اقشعر وهكذا من يفهم معنى استحقق فإنه يفهم حالا معنى المصدر واسم الفاعل والمفعول المشتقات منه قياسياً . ومن يعلم ان تيمم علم لقبيلة من قبائل العرب وأن بيروت علم لمدينة يفهم من قولنا رجل تيمي او يروني انه من بني تيم او من اهل بيروت فهماً يتسارع الى الذهن كتسارع الصوت الى الاذن او النور الى العين . وكذلك من يفهم معنى قدم وحسن يفهم حالا معاني مطاوعاتها تقدم وتحسن وهلم جراً . وغاية ما اخذته العربية عن غيرها من اللغات بعض الفاظ مفردة من باب الاسماء لا تتجاوز بعض المثين وأكثرها من الاسماء الجامدة كخز ودياج واستبرق وتزيق وقالودج مما وجدوه عند غيرهم من اممي فارس والروم ولم يوجد عندهم . ولو كان يسعني المقام لهددت لكم تلك الاسماء المعروفة بالدخيلة او المعربة فانها لا تملأ الاكثر من بضع صفحات في كتاب المزهري للامام السيوطي

وأما علماء هذه الامة الذين ظهروا فيها بعد الفتوحات العربية الاولى وتقلوا العلم اليها من الفارسية او اليونانية او السريانية فلم يحتاجوا الا الى بعض اسماء حكما حكم الالفاظ التي المعنا اليها سابقاً . وبالجملة نقول ان علماء العربية هم الذين اخذوا عن العلماء الذين جاووه من الفرس والروم والسريان دون العربية فانها لم تأخذ عن الفارسية ولا عن الرومية ولا عن السريانية وانضرب لذلك مثلاً — ان علماء العربية اخذوا علم المنطق عن علماء اليونان اما رأساً او نقلاً عن السريانية والكنهم لم يأخذوا الفاظ هذا العلم كما هي عن اليونان بل قالوا موضوع ومحول وقضية وقياس واستنتاج ومقدمة صغرى ومقدمة كبرى ونتيجة والمقولات العشر والقول الشارح والتصديق وكلبي وجزئي وقضية كلية . وقضية كلية مهملة . وقضية كلية مسورة . وهلم جراً من مصطلحات هذا العلم وأخذ العلماء الغربيون هذا العلم عن اليونان كما اخذه علماء العرب اما رأساً او عن

اللاتينية وأخذته لغاتهم أيضاً عن اللغة اليونانية أو اللاتينية لأنهم قالوا سبجت وبرادكت الموضوع والمحمول وقالوا كتيغوري أي المفولات العشر وهلم جرا أي ان لغتهم اخذت نفس الحدود عن اللغة اليونانية بخلاف العربية فانها استغنت عن الفاظ تلك الحدود اليونانية بألفاظ من الفاظها أدت معانيها تمام التادية من غير صعوبة ولا اثباس

وما قيل في المنطق يقال في علوم الفاسفة فانهم أي علماء العربية اخذوا هذا العلم عن غيرهم اما لغتهم فلم تحتاج الى لغة القوم ورأت فيها من الالفاظ ما يؤدي معاني الفاظ ذلك العلم فقالوا موجود وممدوم وعرض وجوهر وحال وكسر وانكسار وتأثر وأثر وماهية ودوية ومقتضي ومانع ومعارض وقالوا الماهيات مجعولة بجعل جاعل وغير مجعولة والعقل الاول والمبدأ الفياض وغير ذلك من مصطلحات الفاسفة كثير . وأنتم ترون ان كل هذه الالفاظ من صميم الالفاظ العربية والعارفون منكم هذه المصطلحات بالفرنساوية أو الانكليزية يعلمون ان اغلب هذه الالفاظ مأخوذة عن اللاتينية أو اليونانية بل يعلمون ان علماء هاتين الامتين ما زالوا يؤلفون في اللغة اللاتينية الى عهد قريب ليدم استطاعة لغاتهم اولاً ان تتحمل هذه العلوم بنفسها بخلاف العربية فانها تحملتها حالاً وأصبحت تلك العلوم كأنها موضوعة فيها ابتداء وكان من علماء اللاتين والجرمان انهم ترجوا في بادىء امرهم اكثر تلك العلوم عن اللغة العربية

وهكذا كان الامر ايضاً في علوم الطبيعة كالتايعيات والطب والكيمياء والفلك والنبات والحيوان فان اللغة العربية لم تحتاج في كل هذه العلوم الا الى الالفاظ التي تستعار استعمالاً لان مسمياتها من نبات وحيوان لم تكن معروفة في البلاد العربية لانها لا تعيش فيها وتعيش في غيرها من البلدان فأخذوا الاسم بأخذ المسمى وهكذا الحال فيها لو كان اللفظ المأخوذ اسماً لآلة مخصوصة صنعها صنّاع تلك الامم قبل ان عرفها العرب والعربية بمئات من السنين

وأما ما اعطته العربية غيرها من اللغات والامم فكثير ومن ذلك (١) انها اعطت حروفها الهجائية للملايين الملايين من الشعوب في بلاد الترك والهند وجزائر البحر فان المورو في جزائر القيايين يكتبون لغتهم بالحروف العربية لحد هذه الساعة

(٢) اعطت نفسها لكثير من الامم الذين تغلبوا على اهلها او تغلب اهلها عليهم مئات من السنين فكانت لهم ما كانت اللغة اللاتينية لشعوب اوربا فان الاتراك والتر والفرس ما زال علماءهم يؤلفون مؤلفاتهم في اللغة العربية الى عهد قريب ولا يزال كثير من علمائهم الى الآن يؤلفون في العربية فقد اهدي الي منذ بضع سنين مؤلف

تاريخي في العربية لزين الدين الرسولي احد علماء قاطان من روسيا
(٣) اعطت لغات الأتراك والتتر والفرس والاردو (احدى لغات الهند) اللغات
والالوف من الفاظ المعاني ومئات وألوفاً من الجمل التامة بل اعطت أكثر هذه اللغات
ولا سيما التركية كل مصطلحات علوم اللغة والبيان والبديع والعروض وأكثر مصطلحات
العلوم والفلسفة حتى بدء القرن التاسع عشر وما بعده ايضاً

(٤) نفتخر انا اعطينا لغات اوربا الارقام العربية وكثيراً من اسماء المعاني
والمصطلحات العلمية ولكنها قليلة كان اولى بنا الاضراب عن المفاخرة بها

(٥) وأخيراً اشكر لكم ايها السادة والسيدات والاخوة الكرام لانكم احسنتم
الاصفاء الي كل هذه الساعة وتابعتموني في مضايق هذا الموضوع لم تظهروا شكوى
من اطالتي ولا تبرماً بخطابتي . وقد كنت احب ان اتوسع في بيان - لماذا احتمات
لغتنا العربية الشريفة في ايام العباسيين مثلاً علوم اليونان والفرس والسريان بدون ان
يظهر عليها عجز او ضعف ولا تستطيع اليوم ان تحتل علوم الاوربيين على ما يزعم
الا كثرون مع ان هؤلاء كانوا يترجمون كتب العلم والفاسفة عنها منذ بضعة قرون . الا
اني لا ارى من اللياقة ولا الحكمة ان استفد كل صبركم دفعة واحدة فتكرموا اذن
في الختام غير مأمورين بقبول مزيد شكري وامتناني ولكم الفضل اولاً وآخراً

اعتذر الى القراء الكرام بما اعتذرت به الى السامعين فاني اعتقد ان اغلبهم

لا يهتمون ان يقرأوا في هذا الموضوع فوق ما قد قرأوا والسلام

